فى
قلب نجد والحجاز

سلسلة مقالات سياسية - اجتماعية - دينية
تتضمن حقائق ومشاهدات فى قلب الجزيزة العربية

بقلم
محمد شفيق مصطفى



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

فى
قلب نجد والحجاز

فى
قلب نجد والحجاز

سلسلة مقالات سياسية ـ اجتماعية ـ دينية
تتضمن حقائق ومشاهدات فى قلب الجزيرة العربية

بقلـــم
محمـد شفـيق مصطـفى

الناشـــر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد ـ الظاهر
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة أن تقدم للقارئ العربي هذه الرحلة المثيرة التي قام بها الرحالة الصحفي المصري محمد شفيق أفندي مصطفى منذ أكثر من نصف قرن من الزمان إلى بلاد نجد والحجاز، وهي ما تعرف حاليا بالمملكة العربية السعودية.

وكم كانت هذه الرحلة مثيرة استغرقت من صاحبها عدة شهور حيث إن وسيلة المواصلات وقتها كانت الإبل.

من هنا كانت الكتابة والقراءة عن هذا البلد الطيب في تلك الفترة الماضية من الزمن أمرا تجد نفسك مشدودا إليه بقوة جاذبة غريبة.

نسأل الله تعالى التوفيق وأن تقضي عزيزي القارئ وقتا ممتعا مع هذه الرحلة إلى بلاد نجد والحجاز ...



مقدمة

وعليه نتكل وبه نستعين وهو خير معين وبعد:

فلست أنكر أنني كنت إلى ما قبل زيارة حضرة صاحب السمو الملكى الأمير سعود ـ ولى عهد نجد والحجاز ـ لمصر فى صيف العام الماضى أجهل كل شىء عن أحوال البلاد العربية التى ندين وإياها بدين الإسلام الحنيف، اللهم إلا القدر الذى يعرفه سواد المتعلمين من أبناء مصر وغير أبنائها من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وحسبى أنه لم يكتب واحد من رحالة العرب والإفرنج فى الطور الحاضر شيئًا يعتد به عنها بعد ذلك التطور السياسى الذى غيّر من كل شىء على وجه الأرض بعد الحرب العالمية الكبرى وبخاصة عقب إدماج القطرين العربيين ـ نجد والحجاز ـ فى حكم واحد، وتحت سلطان ملك واحد، هو: حضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز آل سعود.

وإذا قلت هذا فى شأن نجد والحجاز وحدهما دون الجزء المتمم لشبه الجزيرة العربية، وأعنى به اليمن، فإنما قد قيض لأهل الاطلاع وعشاق التعرف بأحوال الأمم من قام بارتياد هذا القطر من أبناء مصر فى السنوات الأخيرة ونشر ما كان مجهولا عنه.

فقد قام حضرة صاحب السعادة العالم المحقق أحمد زكى باشا برحلة فى العام الماضى فقص علينا ما شهده من أحوال اليمن على صفحات الأهرام الغرّاء

مما لم يتعرض له أحد قبله من حيث الإفاضة فى سائر نواحى تلك البلاد الاجتماعية والسياسية، ولعل النهضة العربية التى شملت كل شبه جزيرة العرب واشتراك مصر بل قيامها بقسط غير قليل بجمع كلمة المسلمين سواء أكان باهتمامها الدائم بشئون الأراضى المقدسة والخلافة الإسلامية، أم بنشر معالم الثقافة العربية وإعلاء شأنها هو الذى حرك همم المفكرين والباحثين لاستجلاء حقائق الحال فى تلك البلاد والعمل على تقريب قلوب الشعوب الإسلامية نحو جاراتها وتوطيد علائق الود والصفاء بينها.

وإنْ أنسَ لا أنسى ما أبداه سمو الأمير سعود أثناء زيارته مصر من هذه الرغبة السامية ودعوته المفكرين لزيارة بلاده واستطلاع شئونها ونشر الحقائق المجردة عنها للناطقين بالضاد ممن لا يزالون يجهلون عنها كل شيء.

من أجل ذلك، ولأنى منذ نعومة أظفارى أشعر بميل خاص إلى احتذاء أثر المستطلعين لأحوال الأمم والبلدان، وكنت ولا أزال ممن يؤمنون بالتطور فى كل شيء حتى إنى كنت أرقب عن كثب خلال زيارة الأمير النجدى وحاشيته الكثيرة العدد مصر ما تحدثه هذه الزيارة لمصر المتمدينة العظيمة التحضر فى نفوسهم من الأثر والتطور النسبى فى حركاتهم وسكناتهم ومقدار قابليتهم واستعدادهم للأخذ بأسباب الحضارة فكنت ألمس أشياء كثيرة مما كنت أومن به من هذه الناحية الحساسة، سواء أكان فى اجتماعاتهم بزائريهم من المصريين والأجانب، أو معاملاتهم الخاصة، وفى خلال مشاهداتهم لعظمة الحضارة المصرية وأسباب العمران الاجتماعى، وما اقتناه سمو أميرهم من نفائس المصنوعات وبدائع الأشياء وتقديره لكل ما كان يقع تحت ناظريه مما كان يعد فى نظره جديداً غريباً.

فإذا أضفت إلى ما تقدم ما كان ينقله إلى سمعى الرواة عن فعال جلالة الملك عبد العزيز، سواء فى تدبير شئون بلاده من الوجهتين الاجتماعية والسياسية، والأحاديث التى كانت تنشرها الصحف لجلالته، مما يدل على سعة اطلاعه وحدة ذهنه وبُعْدِ نظره فى جلائل الشئون، واتفاق قلوب رعاياه على حبه وإجلاله، مع بقاء أكثرهم على بداوتهم وشدة تمسكهم بالعمليات دون النظريات.

كان كل ما تقدم من الأسباب المباشرة التى دفعتنى للقيام بهذه الرحلة الشاقة الطويلة، وحسبى أننى قصدتها لوجه العلم والاطلاع، فقد سلكت طريقاً لم يطرقها سواى حتى الآن من الأجانب عن تلك البلاد فتم لى ما أردته من حيث الاستطلاع الصحيح وإصابه الهدف المقصود.

وإنى لمدين بشىء كثير من الفضل فى نجاح هذه الرحلة إلى تلك الخلال العربية الكريمة التى أبداها لى زعماء قبائل نجد عن طيبة خاطر وإلى استتباب الأمن فى تلك الربوع، وأخيراً، بل وأولا وآخراً إلى رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز التى شملتنى قبل أن يعلم بأمر رحلتى، حتى بلغت «الرياض» أثر عودة جلالته إليها من الحجاز.

محمد شفيق



تمهيد

دفعنى الميل لاستطلاع أحوال شبه جزيرة العرب بعد ذلك التطور الذى شمل هذه البلاد من أدنى أطرافها إلى أقصاها إلى القيام برحلة طويلة شاقة بدأتها بالسفر من القاهرة إلى فلسطين، ومنها إلى نجد، فالأرضى الحجازية، مخترقًا قلب الصحراء على ظهور الإبل، ولا بد لى قبل أن أصل إلى وصف أول بلدة وصلت إليها فى أرض نجد وهى «قريات الملح» يجمل بى أن أصف للقراء كيف وصلت وكيف شددت الرحال، وهو وصف يثير فى النفس ذكريات تاريخية من سير أهل يعرب وملوك البوادى.

لم يكن لى عهد بركوب متون الصحراء ولا أعرف شيئًا عن وسائل الانتقال والمعيشة فى تلك القفار، وقد بدأت الرحلة فى الصحراء بأن استأجرت سيارة قامت بى من عمان ـ عاصمة شرق الأردن ـ قطعت فى قلب الصحراء زهاء أربعمائة كليومتر قضت فى قطعها يومًا كاملاً، لم أشهد فى الطريق أثناءه سوى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، اللهم إلا قوافل من الإبل تسير من هنا وهناك، وقد قص علىّ سائق السيارة أن هذه الطريق كانت قبل الآن من أخطر الطرق على السابلة ولكن الخفارة الجوية المستمرة قطعت دابر اللصوص وقطاع الطريق، اللهم إلا ما تأتيه بعض القبائل كقبيلة الحويطات من الغزوات وأعمال السلب والنهب.

فـــى قـــريـات الملـــح

وما كـدت أصـل إلى «قريات الملح» وهى أول بلد يدخل فى منطقة نفوذ ابن السعود وأبدى رغبتى لبعض زعماء القبائل لزيارة عاصمة نجد حتى أسرع إلى إعداد قافلة مؤلفة من خمسة جمال امتطيت أحدها، وكان ركاب الأربعة الأخرى بمثابة خدم خاص، وتصادف أن كانت هناك قافلة كبرى قوامها خمسون جملاً، ركـابهـا يحملون شتى أنواع السلع والبضائع، آتون بها من أسواق الشام يريدون تصريفها فى قلب نجد، وعلمت أن هذه الرحلة تستغرق من «قريات الملح» إلى «الجوف» تسعة أيام ومن «الجوف» إلى «حائل» عشرة أيام ومن هذه إلى «بريده» ثمانية أيام، ومن هذه الأخيرة إلى «الرياض» عاصمة نجد ثمانية أيام أخرى، فتكون مجموع أيام هذه الرحلة فى أرض نجد فقط خمسة وثلاثين يومًا، وهى مدة إذا أضيف إليها ما يقضيه المسافر للراحة فى الطريق بما لا يقل عن خمسة وعشرين يوماً، فتكون جملتها شهرين كاملين، يضاف إليها مدة سبعة عشر يوماً من «الرياض» إلى «مكة المكرمة» عدا ما قضيناه هناك لزيارة الحرم الشريف وغيره، فيمكن للقارئ قبل المسافر أن يتصور مشقتها على نفسه، لا سيما إذا كان حضريا لم يسبق له فى حياته أن أقدم على مثل تلك الرحلة الشاقة.

وكنت قد استعددت لها فابتعت ثيابا بدوية، وساعد طول زمن هذا السفر «لحيتى» فطالت، فكان طولها أمراً محتوماً على كل مسلم يدخل أرض نجد، على أن رأسى لم تعدم موسى من هاتيك المواسى النجدية التى كانت عجائزنا فى سالف الزمان يحلقن بها «الملوخية» فكنت أحتمل لحيتى المرسلة وثقلها وغضاضة تلك الموسى مغتبطاً رجاء وصولى إلى قلب الصحراء، ولولا بقية صبر فى نفسى

ما استطعت أن أحتمل انعدام وسائل النظافة ووقاية الجسم من أذى الحشرات اللاذعة، فالصابون لا يجده الإنسان في تلك البلاد إلا بصعوبة زائدة وبسعر مرتفع جداً، وقلما يخلع أحدهم ثيابه إلا وهى أطمار بالية وأسمال لم تمسها الماء، وأكثر سكان البادية لا يغسلون أيديهم حتى بعد تناول طعامهم «فصابون العرب لحاهم» كما يقولون هناك.

وقريات «الملح» التى بدأنا السير منها على ظهور الإبل قرية صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين نجد وإمارة شرق الأردن وعلى مسيرة يوم ونصف يوم من حدود سوريا من ناحية جبل الدروز، يحكمها أمير نجدى، طبقاً لأحكام الشرع الإسلامى، وعدد سكانها لا يزيدون عن ستمائة نسمة، ويعيشون من زراعة القمح وتمر النخل وتربية الإبل والماشية واستخراج الملح الذى يجففونه فى أحواض ويبيعونه للرحالة فى قلب البادية، والضرائب هناك يسمونها الزكاة، فهى تحصل تارة نقداً بحساب سبعة مجيديات على كل ستة إبل، وعن كل عشر نوقٍ مائة وأحد عشر قرشًا مصرياً، ورأسان من الغنم من كل مائة رأس، والسرقة والفاحشة معدومتان قطعًا فى تلك البلاد، ويلقبون الحاكم بالأمير.

وقد استقبلنى أمير قريات الملح على «مصطبة» كان يجلس عليها بجانبه سيفه وحوله عدد من أخصائه، وبعد أن قُدمت لنا القهوة النجدية طلب إلىّ أن أظل فى ضيافته أيامًا، ولكنى اعتذرت لرغبتى بمواصلة السفر، وبعد أن قضيت يومًا دعانى لزيارة قبيلة «بنى صخر» فى معيته، وهى قبيلة تضرب فى خيام من الشعر على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من قريات الملح معروفة بشدة البأس وبكثرة الغزوات، وسنأتى على ما يستحق البيان عن هذه القبيلة فيما يلى.

وقبل أن نبرح قريات الملح شاهدنا آثار قصر يسمونه «قصر الصعيدى» لا نسبة

إلى صعيد مصر، ولكن لأنه شيد على هضبة رملية ذات صخور سوداء كبيرة يحيط به سور منها، فإذا بلغ رأس هذه الهضبة انكشف أمامه باب من الخشب يؤدى إلى داخله فيرى آثار مقصورات متعددة، وقد اختلف الرواة فى تاريخ تشييد هذا القصر، فمن قائل: إن قبيلة بنى صخر ـ التى يعدونها مصرية الأصل ـ وبني عمومتهم من الدروز قام منها أخوان وسكنا هذه الجهات فبنيا هذا القصر، ولكنهما اختلفا بعد ذلك، فنزح أحدهما إلى جبل الدروز فأصبح منهم درزيًا، وبقى الآخر فى هذا القصر إلى أن مات فاستولى عليه أمراء هذه البلاد وسكنوه مدة طويلة إلى أن عفت آثاره فتهدمت أركانه وأصبحت أطلالا دارسة ولم يبق منها إلا الاسم.

و «الجوف» على مسيرة تسعة أيام على ظهور الإبل، ومما يستحق الذكر أن هذه الطريق على طولها لم يصادفنا فيها سوى ثلاث آبار، أخذنا منها حاجتنا من الماء، وكان عجبى عظيمًا لتلك الإبل التى لم تطفئ ظمأها خلال هذه التسعة الأيام إلا مرة واحدة، على أن رجال القافلة أبلغونى أنها تستطيع أن تظل بلا ماء فى فصل الشتاء أكثر من خمسة عشر يوماً.

ومن ألطف ما لاحظته فى رفاقى أنهم أثناء أداء الصلاة كانوا يراعون واجب المجاملة باعتبارى مصرياً فيبتهلون إلى الله بالدعاء لمصر وأهلها وجلالة مليكها المعظم، فكانت هذه المجاملة فى ذاتها تسرى عنى وعثاء السفر وتقرب القوم إلى قلبى كثيراً وتشعرنى بعظمة الرابطة الإسلامية التى يدين بها شعوب الإسلام.

ومع أن أولئك البدو لا يزالون على سذاجتهم فهم يدلون بأقوالهم وأفعالهم على فطنة وانتباه إلى ما يصدر منهم، فلا يتخذون من الشئون السياسية والمباحث الخاصة برجال دولتهم مثاراً للبحث أو التسلية، كما يفعل غيرهم من أبناء الأمم الشرقية الأخرى، فهم يقتصرون على ترديد هذه العبارة «المُلك لله ثم لعبد العزيز بن

السعود» وتراهم يقصرون أحاديثهم فى طوال أسفارهم. على رواية قصص مشاهير العرب من بطولة وكرم وتمسك بأصول الدين والفضائل.

ومع أن الشعر نبت فى أرض العرب فإن أهل بادية نجد الوسطى تعده حرامًا، لأنه تغلب فيه الحماسة دون ذكر الله، أو الغزل، وهذا ما يعده العرب نقيصة خلقية تعافها نفوسهم.

وأبلغ مثال على تطور أخلاق العرب أننا مررنا ببقية تدعى «حظوظه» تقع على سطح تل رملى فى وسط الصحراء ذات تربة طينية لزجة لا يستطيع الإنسان السير عليها ولا يمكن أن تقربها أقدام الإبل، ويقول العرب: إنها كانت مكان «مدينة لوط» التى غضب الله على أهلها كما جاء ذلك فى الفرقان، ويقولون: إن بطن هذه البقعة تحوى كنوزاً من الذهب وغيره من النفائس، ومع ذلك فلم تحدث نفس أفقر أعرابى فى الوصول إليها أو التطلع إلى ما يحويه جوفها من كنوز باعتبار أن أرضها نجسة وقد غضب الله عليها وعلى كل من كان يعيش فوق أديمها فى غابر الزمان! وهى نفسية تدل على تدين شديد واستمساك بأوامر الله ونواهيه.

في الجـــوف

وفي اليوم الثامن وصلنا إلى مكان يسمونه «الفرجية» يحيط به عدة جبال كساها البرد وأحاطت بها الحشائش الخضراء فبانت للناظرين كأبدع ما تراه العيون فى سويسرا ذات المناظر الطبيعية البهيجة، أضف إليها جَمال الصحراء وسكونها الرهيب وجلالها الخاطف للألباب، وهكذا مر بنا ضحى اليوم التاسع مرّ النسيم العليل فأنستنا هاتيك المناظر ماسبقتها خلال الثمانية الأيام من طرق موحشة وصحراء جرداء، ووصلنا إلى بلدة «الجوف» فما علم رجال أميرها عبد الله محمد بن عقيل بقدومنا حتى خفوا إلى لقائنا، وكان الأمير ذاته على أبواب المدينة فى انتظارنا ليحيينا ويدعونا لضيافته باسم جلالة الملك ابن السعود، وهكذا لبينا الدعوة شاكرين.

و «الجوف» بلدة صغيرة تقع فى واد منخفض تحوطها الجبال من جميع جهاتها، ولعل ذلك أصل تسميتها بالجوف، أى إنها واقعة فى جوف الجبال والصحراء، ويكثر فيها النخيل الذى يؤتى تمراً ممتازاً على سواه بلذة طعمه وسرعة هضمه، ويزرع أهلها كذلك القمح والشعير وبعض الخضر وأشجار الفاكهة كالليمون والبطيخ والخوخ والعنب والمشمش، ويشتغلون بالتجارة، وبعض الصناعات كدبغ الجلد ونسيج الصوف الذى تصنع منه العباءات المعروفة باسم «عبى الجوف» وقد جاء ببعضها إلى هنا سمو الأمير سعود أثناء زيارته مصر، وتروج هناك تجارة الإبل والماشية، ويكثر فى صحاريها طير النعام الذى يتخذه الخاصة والأمراء طعامًا لهم، وكذلك تكثر الغزلان والحمار الوحشى ذو الخطوط، الذى نشاهده فى مصر بحديقة الحيوانات بالجيزة.

السرقة والزنا معدومان

وقد قدم لى أمير «الجوف» من لحم الغزال والنعام طعامًا على مائدته فلم أزدرده بشهية لعدم اعتيادى تناوله، ولكنهم يعدونه أفخر اللحوم وأجلها شأنًا فى إكرام خاصة ضيوفهم.

ولا يفوتنى أن أذكر أن الأمير عبد الله بن عقيل لم يكن بدويًا قحًا كأكثر أمراء الجزيرة، ولكنه على جانب من العلم والاطلاع غير قليل، وبلاده تحكم طبقًا لأحكام الشرع، على أن مما يوجب العجب أن جريمتى السرقة والزنا تكادان أن تكونا معدومتين قطعيا فى تلك البلاد.

وأذكر أن أحدهم حضر إلى مجلس الإمارة أمامنا وأبلغ أن كيسًا من البن ضاع منه على مسيرة أربعة أيام من «الجوف» وهو قادم من جهة «حائل» ومضى إلى حال سبيله، وحدث بعد يومين أن حضر رجل كان قد سلك هذه الطريق فسأله الأمير عما إذا كان قد وجد شيئًا فى الطريق أثناء سفره، فقال: إنه وجد كيسًا من البن، فسأله الأمير، ومن أين عرفت أن به بنًا؟ فأجابه بأنه جسه من الظاهر بعصاه ثم تركه مكانه، فما كان من الأمير إلا أن أمر بضربه خمسين عصا.

وهنا رأيت أن أسأل الأمير عن سبب إنزال هذا العقاب بالرجل وهو لم يسرق، فأجابنى قائلاً: كان يجب عليه أن يرى الكيس ولا يلمسه حتى يأتيه صاحبه فيأخذه.

وقص علىّ الأمير على سبيل التدليل على أمانة أهل نجد وبُعدهم عن اقتراف السرقة مهما بلغ شأنها أن يرى أحدهم الذهب فى الطريق فلا تمسه يده مهما كان فقيراً معدماً.

وقصر الإمارة هناك يتصل ببناء قديم العهد بناه الإسرائيليون فى أيام عزهم وصولتهم، ويطلق عليه اسم: «قصر مارد» مشيد بالأحجار، وله برج كبير أشبه بقلعة حربية، ويقولون: إنه بُنى قبل ميلاد النبى ﷺ بأربعمائة عام.

ويمتاز أهل «الجوف» على شدة فقرهم بحسن وفادة الغريب وإكرام الضيف، وسوادهم من أصحاب الأبدان لا يشكون مرضًا ولا يذكرون علة على شفاههم، والسر فى ذلك هو جودة مناخ الجوف وطيب مائها وخصوبة أرضها.

وعلى ذكر الزراعة فهم يستخرجون الماء للزراعة بواسطة دلاء من الجلد مشدودة بحبال قد رُبطت أطرافها بأعناق الإبل، فإذا ملِئت الدلاء بالماء وشعرت الإبل بامتلائها نزلت إلى منحدر بجانب البئر وعندئذ تكون الدلاء قد ارتفعت إلى علو وأفرغت ما بها من الماء فى حوض ذى فتحات متصلة بالأرض المراد ريها، ويسمون طريقة الرى هذه «التنى».

فشل محاولات استعمارية

وقبل أن نغادر «الجوف» قص عليَّ الأمير أن جماعة من السواح الأمريكان والإنجليز طالما حاولوا ارتياد ما بعد الجوف بحجة الاستطلاعات العلمية والجغرافية فلم يأذن لهم الملك ابن السعود مخافة أن يكون لهم شأن آخر كهاتيك الشئون الاستعمارية التى بدأها أمثال هؤلاء فى غير بلاد العرب بمثل تلك الأسباب ثم كانت النتيجة بلاء على أهلها، مثال ذلك أن رجلاً إنجليزياً يدعى مستر «ابشر» ذهب إلى «الجوف» على رأس قافلة من السيارات كلفته أموالاً طائلة بحجة إقامة مصنع للفخار من طينة معروفة بصلاحيتها لهذا النوع فلم يأذن له الملك، وهكذا أصبح معروفا فى بلاد الغرب أن نجداً لن تصلح أرضها لوطء أقدام السياح والعلماء والخبراء والمهندسين الأوروبيين، حتى إن أحدهم أكد أن فى وسعه أن يفتح آباراً للبترول «بالرياض» عاصمة نجد، فرُفض طلبه مع شدة حاجة أهلها إلى البترول وغلاء ثمنه.

فى حين أن ابن السعود ليتمنى أن تصل إلى بلاده بعثات علمية من كل مطلب ومشرب، على أن تكون شرقية إسلامية بريئة لا مطمع لها ولا مأرب، فهو يحب العلم ويقدره، ويرجو لبلاده العمران والرفاه، ولكنه يرفض كل ذلك بشدة لو جاءه من طريق مريب.

و «حائل» تبعد عن الجوف نحو عشرة أيام على ظهور الإبل، وقد بدأنا السير فى هذه الطريق فإذا بها طريق موحشة بلقع، فكنا نسير صاعدين فوق تلال ضيقة رملية تشرف على حزون بعيدة الغور، ثم نهبط منها منحدرين إلى مغاور ومجاهل يشرد عندها اللب وينخلع لها القلب، ذلك لأنه إذا اختل توازن الراكب على الإبل

قليلاً أو عثرت أقدام الإبل كان الهلاك محققًا إذ يسقط فى هوة لا نجاة منها، وكانت عيون الماء خلال الستة الأيام الأولى معدومة ولولا ما نحمله من الماء على ظهور الإبل وما كانت تملأ به أجوافها منه لهلكنا نحن وهى ظمأ، على أننا مع ذلك لم نستطع قط أن نسرف فى الماء، فلم نغتسل بقليل ولا بكثير منه.

وما كاد فجر اليوم السابع ينبلج حتى وصلنا بلدة تدعى «جبه» ذات مبان من طين أبيض يلفت الأنظار، فأخذنا حاجتنا منها بعد أن استرحنا قليلاً، وما كان أكبر دهشتى حين أقبل علينا نفر من أهل تلك البلدة يحتفون بنا ويسألون عنى بالاسم؛ وقد علمت أن بعض رجال القافلة التى سبقتنا أنبأهم بوصول مصرى متحضر ينوى زيارة أمير الرياض، فكأنهم بذلك عبروا عن سليقة الكرم العربى جملة ونابوا عن أميرهم خاصة.

وفى اليوم التاسع وصلنا إلى قرية تدعى «قنا» وينطقون الحرف الأول منها بالجيم كما ينطقها أهل مديرية قنا المصرية ، وهذه القرية صغيرة جداً لا أثر فيها للأخذ والعطاء، حتى إننا أردنا شراء شاة لطعامنا فلم نجدها، على أن ذلك لم يسؤنا كثيراً، فقد وصلنا إلى حائل بعد ظهر اليوم التالى مارين فى طريقنا بثلاث قرى أكبرها «أم جلبان» ولا تزيد مبانيها على أربعة بيوت يحيط بكل بيت بعض النخيل.

ولما صرنا على قيد أميال من حائل كان نائب الأمير عبد العزيز ابن مساعد بن جلوى، وهو ابن عم جلالة الملك ابن السعود فى استقبالنا، وقد رحب بنا باسم أميره وسار بنا حتى دخلنا «حائل».

في حائل

«حائل» هذه اسم على مسمى، فهي حائل بين بلاد نجد وبين ملحقاتها الشمالية، وتعد بالنسبة إلى غيرها من البلاد التى مررنا بها مدينة عامرة ذات شوارع فسيحة منظمة، وفيها سوق كبيرة تروج فيها تجارة الماشية والإبل.

وهى أقرب بلدان نجد إلى الحجاز، فهى تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أيام فقط، وإلى الشام بنحو خمسة عشر يوماً، وإلى العراق بما يقرب من ذلك، على ظهور الإبل، وهى محطة رحال التجار القادمين من هاتيك الديار والمسافرين إليها.

وتروج فيها تجارة الأرز الذى يُجلب من الهند إليها، وهو بمثابة مادة أولية للغذاء نظير الحنطة فى مصر، وتزرع فى جوارها مساحات كبيرة من الخضر والفاكهة، ومع كثرة وجود النخيل فإن تمره ردىء غير مرغوب فيه إلا عند الطبقة الفقيرة جداً.

وقد شاهدنا بعض النسوة يبعن الخبز والفاكهة والخضر والدجاج والبيض فى سوقها وهن محجبات بجلابيب سوداء وفوقها جلبات بشكل العباءة، وهن فى غاية الحشمة والوقار، لا تسمع لهن صوتاً ولا يتحدثن مع السابلة إلا بالقدر اللازم لبيع ما بأيديهن من السلع.

أما القصابون هناك فينحرون الماشية ويقسمونها إلى أربعة أجزاء يسمونها «أوصالاً» فيُباع الجزء منها بمبلغ يتراوح بين العشرة والثلاثة عشر قرشاً، أما أثمان الدجاج فرخيصة جداً إذ تباع الدجاجة الكبيرة بثلاثة قروش فقط.

وأهل هذه المدينة يتعاملون بعملة فرنسية يسمونها: «الشوشى» ويسميها بعضهم: الريال، وهى قطعة فضية قيمتها أحد عشر قرشًا تقريبًا، أما أجزاؤها فهى «البيشلى» قطعة من عملة تركية، وهى المعروفة بالبيشلك بخلاف أهل قريات الملح والجوف فإنهم يتعاملون بالمجيدى التركى.

فى ضيافة امير حائل

وفى اليوم التالى لوصولنا دعانا الأمير عبد العزيز بن مساعد إلى قصر الإمارة وقد استقبلنا فيه استقبالاً حسنًا وأنزلنا بمنزل خاص ورتب لنا خدمة خاصة، وهذا الأمير يخيل للرائى لأول نظرة أنه على شىء من العجرفة والكبرياء، ولكنه فى الواقع على جانب كبير من رقة الشمائل ومكارم الخلال، وهو مطلق الحكم فى إقليمه وما يجاوره من ملحقات نجد الشمالية، فهو الحاكم المسموع الكلمة النافذ الإرادة بعد الملك ابن السعود، ومما يستحق الذكر أنه معروف بالشدة والبطش إذا خالف أحد أحكام الشرع أو أخل بالأمن العام، ويستخدم هذا الأمير فى روحاته وغداوته وأسفاره سيارتين يُؤتَى لهما بما يلزمهما من وقود وأدوات من القدس وشرق الأردن ويقوم بقيادتهما سائق سورى يساعده آخر نجدى.

وقد دعانا أحد رجال القصر لمشاهدة سجن المدينة، وكنت أحسبه عامراً بالمحكوم عليهم، ولكنى بُهِتُّ حين وجدته خاليًا إلامن حراسه الذين ما كانوا يحرسون غير جدرانه وخشبته المستطيلة الأفقية التى تتدلى منها سلاسل حديدية تُقيد بها أقدام المسجونين ـ إن وُجِدوا ـ وقد عرفت السر فى خلو السجن من المسجونين، ذلك لأن الأحكام الشرعية وحدها هى خير وازع تقطع خط الرجعة دون الجرائم على أشكالها وضروبها، وقد علمت أن المسجون رغمًا عن قيوده داخل سجنه فإنه يعامل معاملة حسنة ويطعم عادياً، ويؤذن له بأداء الصلاة فى أوقاتها، والناس على اختلاف مشاربهم يحترمون القانون الشرعى ويعدونه تنزيلا سماويا لا سبيل إلى مخالفته.

وحائل ذات مناخ معتدل، وفيها عين ماء عذبة شافية من العلل يسمونها: «ماء السماح» لا تقل أهمية عن مياه «فيشى» المعدنية الشهيرة، فهى تذيب الأملاح وتشفى أمراض الكلى بسرعة وتنقى الدم وتساعد على الهضم بصورة مدهشة.

وأما مياه عيونها الأخرى فلا بأس بها أيضًا، يدلك على ذلك اعتدال صحة سكانها وامتلاء أجسامهم، وانقطاع الأمراض بينهم، وقد كانت حائل فيما مضى عاصمة لملك ابن الرشيد الذى كان أميراً عليها من لدن آل سعود واستقل بها زمناً ثم أعيدت إلى حظيرة آل سعود، مما سنأتى عليه بعد.

وأهل حائل أصلهم من قبيلة «شمر» التى كانت تضرب فى البادية، فانقسمت على نفسها ورحل جزء كبير منهم إلى حائل فتحضروا فيها، وظل الجانب الآخر على حالته، ويشاهد فى حائل «الأخوان» الذين يسمونهم «الحبان» وهم يعرفون بعمائمهم الكبيرة التى يضعونها فوق كوفية حمراء يسمونها «الغطرة» وهى تختلف أوضاعًا وحجمًا، فمن كانت عمامته متوسطة الحجم كان عادياً، أما من ظهرت عمامته أكبر حجماً عرف بأنه شيخ من خاصة الحبان.

وللحبان فى بلاد نجد المقام الأكبر والمكان الذى يفوق سواهم من عرب البادية، فهم أصحاب الغزوات المشهورة فى حائل والأحساء والحجاز، وكانوا إلى ما قبل بضع سنوات لا يعرفون من الدين إلا اسمه، ولكنهم الآن باتوا على معرفة كبيرة بأصول الإسلام وقواعده وأوامره ونواهيه، وإليهم مرجع الفضل فى إخضاع الحجاز إلى مُلكهم، وطرد الحسين وأولاده من الأراضى المقدسة، ونشر تعاليم السنة المحمدية فى نجد والحجاز على السواء.

فـى بـريـدة

. مدينة «بريدة» على مسيرة ثمانية أيام فى طريق سهلة وكانت أول قرية صادفناها قرية تدعى «العدوة» يحيط بها أراضٍ منزرعة بالغلال وجبال شاهقة الارتفاع ذات منظر ساحر، على يمينها أرض رملية يضرب لونها إلى وهج الذهب، تؤلف منظراً يخطف الألباب.

وحدث أثناء سفرنا أن افتقد أحد رجال قافلة تقدمتنا فى السفر ناقة له أثناء الليل فأرسلوا بعض رجالهم للبحث عنها، فعادوا وأخبروا بأنهم لم يعثروا عليها، وفى [هذه] الأثناء حضر بدوى وأبلغهم أنه شاهد ناقة فى طريقه وأعطى أوصافها، وكانت هى الناقة الضالة، وذكر أنه كان فى وسعه أن يقودها معه إليهم، لولا خوفه من أن يُتهم بسرقتها، فشكره صاحب الناقة، وهكذا جدّ رجال القافلة حتى عثروا عليها قبل أن يصل أمرها إلى ولاة الأمور، فاستخلصت من ذلك ما أيد لى أمانة القوم وانعدام حوادث السرقة انعداماً باتاً فى قلب نجد.

ووصلنا إلى بريدة بعد مسيرة عدة أيام، صادفنا نحو أربع قرى هى: «الكهفة والجوارة ووثال والشقة» وينزل فى ثانيتها بعض الإخوان المتحضرين منذ زمن بعيد، وبجوار البلدة الرابعة جبل يستخرج منه الملح دون أن يدفع عنه الأهالى ضريبة أو ثمناً.

وكان أمير بريدة قد بلغه خبر قدومنا، وهو يدعى: مبارك بن مبيريك، فخف لاستقبالنا باسم جلالة الملك ابن السعود استقبالاً هو غاية فى الود ونهاية فى الكرم، وأنزلنا فى داره ضيوفاً كراماً.

و «بريدة» هذه تقع فى سهل رملى ذات مبانٍ متعددة كحائل تحيط بها المزارع وأشجار النخيل، ويمتاز تمرها بقصره وسمنته، والأهالى هناك يجففونه ويسمونه «اليبيس» وأحسنه ما تنبته نخيل «عنيزة» ومع أنه شديد الحلاوة لذيذ الطعم إلا أنه غير سهل الهضم.

باريس نجد

ويعدون بريدة عاصمة لسائر القرى التى تحيط بها وهى فى جملتها تدعى: «القصيم» وأهم مدنها: «عنيزة» وهى التى أسماها الشاعر الأشهر أمين الريحانى عند زيارته لها «باريس نجد» ذلك لأن منازلها مؤلفة من ثلاث طبقات، على نسق مبانى المدن المتحضرة.

وأهل القصيم ـ ولا سيما سكان بريدة وعنيزة ـ يعدون أغنى أهل نجد جميعاً، وأكثرهم تحضراً، وأنشطهم حركة، وأعرفهم بأساليب التجارة.

ولقد رأيت كثيرين منهم فى الشام ومصر يتبادلون المتاجر فيجلبون إلى مصر مثلاً الخيل والإبل والماشية والجلود والسمن، ويبتاعون الأقمشة وشتى أنواع المصنوعات والسلع، بل منهم من له شأن تجارى يغبط عليه فى أسواق الهند ومدن الحجاز، وكان ذلك سبباً فى تطور أخلاقهم وعاداتهم وميلهم إلى الأخذ بأساليب المدينة وسهولة الطباع وعدم التعصب لمذهب دون آخر.

زد على ذلك أن فى وسع الغريب عن ديارهم أن يفهم لهجة كلامهم بسرعة، فإذا أضاف بعضهم غريباً متحضراً أدهشه ما يراه على موائدهم من أصناف الأطعمة ولوازم المائدة مما يجعله لا يصدق أنه فى قلب نجد.

كما أنى لاحظت بعضهم يدخن سراً، وعلى ذكر الدخان الذى يسمونه النجديون «التيتن» أقول: إنه لا يوجد له أثر فى نجد، فإذا عُثر عليه عوقب صاحبه كما يعاقب محرز الحشيش والمخدرات السامة فى مصر.

وعلى ذكر سكان بريدة فيما أسلفنا نذكر أن جلالة ابن السعود يختار عادة من مفكريها ورجالها المتعلمين من يمثلون بلاده فى الخارج أمثال حضرة الشيخ فوزان السابق متعمده فى مصر، والشيخ يس الرواف معتمده فى سوريا.

إلـى الريــاض

مضينا فى «بريدة» ثلاثة أيام ثم استأنفنا السفر إلى «الرياض» عاصمة نجد، وللوصول إليها طريقان: طريق «الوادى» وطريق «المستوى» وثانيهما أقصر من الأول، وحدث فى الأثناء أن أذيع خبر عودة جلالة الملك عبد العزيز من المدينة المنورة إلى عاصمة نجد للمرة الأولى بعد فتحه الحجاز، فاخترنا طريق المستوى كى نعجل بالوصول إلى الرياض لنشهد حفلات استقباله، وقد قطعنا اليوم الأول فى طريق رملى ذى هضاب رملية، ووصلنا إلى قرية تدعى «أبو شيجر» بعد مسير أربعة أيام ومن هناك علمنا أن جلالة الملك وصل فى موكب أفخم مؤلف من ست وعشرين سيارة فى ذلك اليوم.

ولم أر ما يستحق الذكر خلال هذا الطريق سوى أن أهل القرى هناك يأكلون الجراد، وهم ينتظرون مواسمه كما ينتظر سكان مصر موسم السمان.. وأغرب من ذلك أنهم يتفاءلون بالخير إذا أقبل موسمه بقدر ما يتشاءم منه أهل مصر ويتسلح الفلاحون المصريون لمطاردته، ومما يتحدثون عن فوائده من نجد أنه مغذٍّ كالشهد، شافٍ للعلل كالترياق، حتى بلغت بهم شدة الشغف لأكله أن يتخذوا منه قديداً، ولا أدرى أهم يقددونه بطريقة التعقيم أم بطريقة أخرى لا تزال غائبة عن معامل برشلونة..

وقد قص علىّ أحد رجال القافلة أن بعض كبار التجار النجديين فى مصر لا يزالون على عهدهم بقديد الجراد، يرسل إليهم فى أكياس هى عندهم أعز من أكياس الحلوى التى تُهدى فى الأفراح.

ومررنا على بلدة «شجرة» وهى كائنة فى وسط إقليم يسمى «الرس» وهى ذات تجارة متوسطة ويعدونها عاصمة ذلك الإقليم.

ومررنا كذلك على بلدة تدعى «البره» إلى أن وصلنا إلى مدينة «الدرعية» بعد مرورنا على أطلال قرية يسمونها «العيينة» التى نشأ منها «مسيلمة الكذاب» الذى ادعى النبوة فى عهد النبى ﷺ.

و «الدرعية» مدينة أثرية كانت عاصمة لنجد وفيها نشأت أسرة آل سعود، ومنها ظهرت الدعوة الوهابية، وحولها دارت الحرب بين جنود المغفور له إبراهيم باشا ـ والى مصر ـ وبين الوهابيين، ولا تزال آثار مدافعه بادية للأنظار فى خرائب مدينة الدرعية القديمة.

عاصمة نجد تستقبل ملكها

بلغنا «الرياض» فى صباح اليوم الثامن وكانت المدينة قد لبست زخرفها وانتشرت معالم الابتهاج بوصول مليكها إليها بعد فتحه الحجاز، وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه.

تعطفات ملكية

وكان جلالة الملك قد علم بقدومنا فأرسل مندوباً عنه لاستقبالنا بباب المدينة وسار بنا إلى قصر جلالته، وقد دخلنا عليه لأول مرة فإذا به يستقبلنا استقبالاً ودياً كأننا كنا على صداقة قديمة بيننا وبين جلالته، ولما علم بغرضنا من رحلتنا سُر وأظهر عطفه على رغبتنا فى استطلاع أحوال شبه الجزيرة العربية، وأمر بإعداد منزل خاص لإقامتنا، وطلب إلينا أن نحظى بمجلسه فى أى وقت شئنا، ومِن ثَمَّ أخذنا نتعرف بكبار ذوى الشأن فى عاصمة نجد لنستطلع ما جلّ ودق من شئون البلاد، جملة وتفصيلاً.

وبدأنا نجمع المعلومات الدقيقة عما كان قبل إعلان الحرب على الهاشميين، وفى خلال تلك الحرب، وما جرى بعد ذلك من التطورات حتى الآن، مما سنأتى عليه.

وصف العاصمة النجدية

القصور الملكية

«الرياض» تعد أكبر مدن نجد وأعظمها شأنًا باعتبار أنها عاصمة الديار النجدية، ذات مبانٍ متعددة، بينها عدة عمارات كبيرة أكثر شبهًا بمنازل أعيان أقاليم القطر المصرى، أما قصور أمراء الأسرة المالكة فتمتاز عن سائر مبانى الرياض باتساعها وبهاء شكلها.

ويحيط بالمدينة سور فخم له عدة أبواب كثيرة على مثال أبواب المدن الشرقية فى سالف الزمان، وهى تقفل عند اللزوم.

وتحيط بالعاصمة المزارع وأشجار النخيل، وهناك مزرعة خاصة بأمراء البيت المالك، لم يستوقف نظرى فيها سوى بعض شجيرات من الورد وأخرى من القطن، ولعل فى زرع شجيرات القطن معنًى خاصًا يجول فى نفس جلالة ابن السعود هو ذات المعنى الذى جال فى نفس المغفور له محمد على باشا ــ محيى مصر ــ يوم أمر بزرع بعض شجيرات من القطن للمرة الأولى فى مصر فى حديقة قصره، فلما أعجبه شكلها وسره تفتح لويزات القطن وظهور خيوطها البيضاء وما كان منه بعد ذلك حيث أمر بتعميم زراعته فى سائر بلاد القطر، فكان ذلك سببًا فى رخاء البلاد وسعادة العباد، على أن تحقيق هذه الأمنية السعودية قد يتم على مدى الزمان إذا أُعدت الأراضى التى تصلح للزراعة ومُهدت لها وسائل الرى.

وفى الرياض عدة مدارس دينية أشبه بكتاتيب المساجد عندنا، يدخلها الصبيان فيتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ولا يتبحر فى

العلوم الدينية إلا النادر من الذين يريدون الانقطاع لخدمة العلم والدين فيُلقنون تفسير القرآن وأحكام الشرع، ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها.

وفى الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف والفرش، بغير قباب، وأغلبها بغير سقف، وتقام صلاة الجماعة فى أيام الجمع والعيدين فى مسجد واحد، ويبلغ اهتمام بعضهم بسماع الخطبة المنبرية أن يبكر فى الحضور إلى المسجد ليأخذ له مكاناً فيه خشية الزحام، فإذا طرأ عليه ما يستوجب مبارحته المسجد وضع عصاه أو أى شىء آخر فى مكانه ومضى إلى سبيله حتى إذا أُذن للصلاة عاد إلى مكانه دون أن يرى من يجرؤ على احتلاله.

ولا تستعمل القناديل فى إضاءة المساجد ليلاً، فيكتفون ببعض الشموع.

ومن أعجب ما لاحظته عند صلاة الفجر بعد الانتهاء من الصلاة أن ينادى المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة فى مسجده، فإذا تخلف أحدهم دون عذر شرعى عوقب للمرة الأولى بمصادرة «كوفيته» فإذا عاد عوقب بأخذ «عباءته» أما إذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام.

وقد جرت العادة بعد صلاة الجمعة أن يجلس الملك ونائبه فى ردهة القصر الملكى ويستقبل المصلين فيمر بهم الساقى بالشاى، ثم بالقهوة النجدية ومِن ثَمّ يطوف بالحاضرين رجلان يحملان مبخرة يتضوع منها عبير المسك والعنبر ويعدون هذا بعد صلاة الجماعة مسك الختام فيبتهلون بطول العز والتأييد للملك.

أما القصر الملكى فهو مشيد على نمط عربى صرف، تقوم فى وسطه أعمدة من الجبس الأبيض الناصع، ذات نقوش عربية تستوقف الأنظار بدقتها وجمالها، وهو يتألف من طابقين:

الطابق الأول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك الأخصاء، وغرف أخرى خاصة بإطعام اللاجئين لساحته الملكية من فقراء البدو والسابلة.

أما الطابق الأعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو يسع نحو ثلاثمائة شخص.

وقد خصص جناح للديوان الملكى يشمل مكتبة الملك الخاصة وديوان سمو الأمير سعود، وغرف خاصة لسكنى كبار موظفى القصر، وطبيب الملك الخاص.

ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص بالحرم والوصيفات والجوارى والعبيد، وعددهم جميعًا لا يقل عن أربعمائة شخص بين ذكور وإناث.

جلالة الملك عبد العزيز

وأما جلالة الملك عبد العزيز بن السعود فطويل القامة ممتلئ الجسم، نحاسى اللون، براق العينين، سمح المُحيا، يضع على عينيه نظارة، وتبدو عليه مخايل الذكاء المفرط، وقوة الإرادة، وشدة العزم، مع سماحة الخُلق، وأناة وتدبر فى كل ما يخرج من فمه من الكلام.

وجلالته يناهز الخمسين من عمره، وقد أصيب فى إبهام يده اليسرى برصاصة أثناء الحرب فتركت أثراً ظاهراً فيه حتى الآن.

ومن عادته إذا سار خفض برأسه نحو الأرض، ويلبس عباءة نجدية مزخرفة بالذهب، كثيراً ما يرفع جزءاً منها تحت إبطه، لا يسرع أثناء سيره، وهو محبوب من شعبه، لا يتوجس خيفة شر من أحد، فلا يهتم كثيراً بملازمة الحرس إياه.

اول حديث ملكي معنا

ومما يجدر بي ذكره أنه بعد أن مثلت بين يدى جلالة الملك كان أول ما ابتدرني به من الحديث أنه هنأني بسلامة الوصول، وطفق يسألني باهتمام عما شاهدته أثناء سفرى الطويل الشاق، فكان يبتسم ابتسامات الإعجاب كلما أجبته على سؤال بما لا يخرج عما أسلفت بيانه في مقالاتي السابقة، ومِن ثَمّ بدأ جلالته يحدثني قائلاً:

«ليس عندنا سوى دين واحد، ومذهب واحد، والجميع يؤدون الصلاة وراء إمام واحد، وهذا ما نشكر الله سبحانه وتعالى عليه، نعم إن المذاهب أربعة، ولكننا نعتقد أن مذهب الإمام ابن جنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة، فلا نجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم: السلام عليكم، وهم مرتبطون جميعًا بكلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس يقوم مُلْكُنا والحمد لله، نحن لا نبغي المُلْكَ لذاته، فالمُلك لله الواحد القهار، فوالله وبالله، لو أُعطينا ممالك الأرض طراً وأحسسنا أن ببعضها شركًا لبعدنا عنها بُعْدَ السماء عن الأرض، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار، ولا نبغي إلا أن يهديهم الله سواء السبيل، فما داموا بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء، ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم، ولا أن نتشبه بهم، حتى ولا نرتدى شيئًا يلبسونه، إن المسلم الحقيقى هو الذى يتبع أصول دينه، ويرعى أمر الله، فمن شابهَ الكفار أو تشبّه بهم فلا خير له فى الدنيا ولا الحياة الآخرة».

تلك هى النفسية الدينية التى يدين بها الملك عبد العزيز، الذى يحكم اليوم أرض نجد والحجاز، ويقبض على ناصية الأمر فيها بيد من حديد.

ولعل للأحكام الشرعية التى هى أساس قيادة الشعبين الأثر الفعال فى قطع دابر حوادث السلب والنهب والاعتداء على الأرواح والأموال والأعراض ـ كما كان يحدث قبل فى بلاد الحجاز ـ وتأمين حجاج بيت الله الحرام من هذه الناحية.

ومع أن البدو أناس لا يخضعون لحكم أو سلطان فمن العجيب أن يسرى بينهم حكم الشرع ويخضعون له ذلك الخضوع، فمن البديهى أن دهاء هذا الملك ومقدرته على استمالة النفوس التى تأصل فيها الشر والفوضى منذ عدة قرون كانت هى العامل الفعال لاستقرار حكم الشرع بين تلك القبائل.

وإذا ألقينا النظر على شكل حكومته لا نجد فيها هيئة وزارة، ولا مجلس وكلاء، ولا مستشارين، ولا رجال تشريع بالمعنى الذى نفهمه نحن، فالأموال العامة تُجْبَى من الأهالى بغاية السهولة وتحت تأثير حكم الشرع، ويتولاها رجل واحد، هو موضع ثقة الملك وحاشيته، فأكبر مبلغ وأقل مقدار من المال سواء أكان لمصلحة عامة أو خاصة إنما يُصرف بموجب قطعة ورق يكتب عليها الملك أو نائبه أمر الصرف، دون الحاجة إلى إدارة خاصة بالحسابات وعدد كبير من الموظفين.

ويتحتم أن تعرض سائر مكاتبات الدولة فى كافة شئونها عليه، وكذلك يطلع بذاته على ما يتحرر من المكاتبات ويبصمه بخاتمة الذى لا يفارق أصبعه.

هذا فيما يتعلق بحكومة نجد فقط، أما الحجاز ففيها حكومة منظمة وإدارات متعددة كإدارة الأمن العام، وإدارة الشئون الخارجية وغيرها، على أن المرجع الأعلى لكافة شئون الحجاز أيضاً يجب أن تعرض على جلالة الملك عبد العزيز شخصياً.

المناداة بالسلطان عبد العزيز ملكا

ولنعد إلى الرياض فقد ذكرنا أن جلالة الملك كان قد وصل إليها قبل أن نبلغها بأربعة أيام بعد أن غاب عنها زهاء ثلاث سنوات، قضاها فى الحجاز بعد انتصاره فى الحرب المعلومة، فكان بديهيا أن تنتشر معالم الأفراح عند عودته فاتحًا ومنصوراً، وبعد غيبة طويلة لم يسبق لها نظير من قبل، فقد غصّت المدينة بوفود من أطراف البلاد للترحيب بمقدمه، وكانت مناظر ساحرة يبديها أولئك الوافدون من مظاهر التأهيل والاغتباط في وسط جذل آل البيت السعودى، فكنت ترى العطايا الملكية تفيض على فقراء الوافدين، والهدايا تعطي لكرامهم، وألسنة الجميع لاهجة بالشكر والحمد.

وقد دُعيتُ لحفلة إعلان المناداة بجلالة عبد العزيز ملكًا على نجد، بعد أن كان سلطانًا، وقد فاضت فيها ألسنة الشعراء والخطباء ببيان صفات مليكهم وما أحرزه من فخر الانتصار فى فتح الحجاز.

وقد قال أحدهم: «ما دامت الحجاز أصبحت من أملاكنا فلا يجوز أن نتفرد بوصف أنها دولة ملكية دون نجد التى لا تقل عنها شأنا».

حفلة زواج الأميرة سارة

ودُعيت لحضور حفلة زواج الأميرة سارة، ابنة جلالة الملك على ابن عمها الأمير فيصل بن سعود، فكانت حفلة غاية فى البساطة، فقد فُرشت ساحة القصر بالأبسطة الفخمة، ومُدت الموائد الشهية، وبعد أن تناول المدعوون ما لذ لهم وطاب أمر جلالته بنحر خمسمائة شاة وتوزيع لحومها على الفقراء والمعوزين، وبعد انصراف المدعوين جيء بأحد العلماء وتولى أداء المراسم الشرعية.

فكانت حفلة عربية أمثال تلك التى حدثنا عنها السلف الصالح، فبساطة مصحوبة بإسداء التكرمة للجائع والمحروم وابن السبيل، ومظهر من مظاهر تعلق الشعب بمليكه، ومثل أعلى فى تقرب الملوك من رعاياهم.

وأهل الرياض يشتغلون بجلب المتاجر من «الاحساء والكويت والجرين» يتبادلون وتلك البلاد مصنوعات نجد وماشيتها.

بل هناك مورد عظيم هو إجادة النجديين استخراج اللؤلؤ والمرجان من قاع الخليج الفارسى.

أما الحالة الزراعية فليست بذات شأن يذكر حول الرياض اللهم إلا بقدر حاجة السكان، فيمكن أن توصف الرياض ـ والحالة هذه ـ بأنها مركز تجارى ومقر حكم تلك البلاد لا أكثر ولا أقل.

ويتداول الأهالى هناك بالجنيه الإنكليزى والعثمانى والروبية الهندية والريال الشوشى، الذى أسلفنا ذكره عن «حائل» وأجزاء هذا الريال «الجديدة» بينما أجزاؤه فى حائل «البشالك» ويساوى الريال فى الرياض ٤٣ «جديدة» وأجزاء الجديدة ست قطع من البرونز يطلق عليها اسم (بيزة).

عنـــد الأمـــير ســـعود

وقد دعانى سمو الأمير سعود إلى زيارته فى قصره الخاص، فكان أول ما ابتدرنى به قوله:

(لن أنسى ما عشت أهل مصر وحفاوتهم بى، كما لا تبرح عن مخيلتى تلك المكارم التى طوقت بها عنقى الحكومة المصرية، ولا أنسى على مدى الدهر عطف حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأبوى، أثناء تشريفى بمقابلته السنية، فهى صفحات ما فتئت أقلبها منذ وطئت قدماى أرض بلادى بعد عودتى من مصر.

وإن قومى ليحفظون كل ذلك لمصر، ويعدون كل ما نلته من مظاهر الحفاوة والتكريم إنما اختُصوا هم به، فكان موجهاً لهم بالذات.

وقال: ولن أنسى كذلك أن أخص بالشكر رجال الصحافة المصرية الذى برهنوا على عظيم محبتهم للإسلام وأهله، وإنى لذلك ما زلت أدعو لمصر بكل خير، وأتمنى من صميم قلبى إحكام صلات الود والصفاء بين البلدين).

حياة الملك اليومية

لقد اعتاد جلالته أن ينهض قبل انبثاق الفجر، دون أن يلزم أحداً من خاصته بالنهوض في ذلك الوقت، وبعد أن يتوضأ ويتلو ما تيسر من القرآن الكريم ويؤذن المؤذن بصلاة الفجر يقصد إلى مسجد القصر حيث يكون في انتظاره هناك عدد من عبيده، فيؤدى صلاة الفجر، ومن ثَمّ يعود إلى إيوانه فيتناول طعام الإفطار مع من يكون حاضراً من أبنائه وأفراد أسرته، حتى إذا فرغ من هذا انتقل إلى مكتبه الخاص في ديوانه فيأخذ في مطالعة الرسائل واستعراض بعض المسائل وبحثها وإبداء رأيه كتابة.

ويظل كذلك حتى بعد شروق الشمس بساعة، ومن ثم ينتقل إلى إحدى قاعات الاستقبال حيث يستقبل بعض أخصائه، ويرسل في طلب بعض من لهم به شأن هام، وبعد ذلك يستقبل وفود «الإخوان» فيقضي في الاحتفاء بهم ومسامرتهم وسماع ما يدلون به إليه من الأقوال والأحوال وقتاً غير قليل.

ومما يذكر أن أولئك الاخوان يتحدثون إلى مليكهم كأنما يخاطبون واحداً من إخوانهم البدو في الصحراء، وليس ذلك منهم كما يتبادر إلى بعض الأذهان «جحلفة بدوية» ولا قلة احترام لملوكهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمسكا بسنة السلف الصالح والسير على ما كان عليه المسلمون في أيام الخلفاء الراشدين.

مثال ذلك أني رأيت أحدهم يخاطب مولاه الملك بقوله: «يا عبد العزيز» ! فاستكبرت منه ذلك وكدت لا أصدق سمعي لحقارة شأن المتكلم وسعة صدر جلالة المخاطب، لولا أن أحدهم همس في أذني قائلا: «ذلك هو الدستور الذى شرعه لنا هذا الملك، فهو يقبله على العين والرأس ولا يرضى سواه بديلا».

في المجلس الكبير

وعند الضحى ينتقل جلالته إلى قاعة تعرف باسم «المجلس الكبير» حيث يجتمع فيها عادة أمراء الأسرة الرشيدية والعايدية، وهذه الأخيرة هى الأسرة التى كانت تحكم بلاد أبْها، التابعة لحكم نجد الآن، وكذلك بعض كبار أعيان نجد وزعماء باديتها.

وهناك فى هذا المجلس يستعرض جلالته الشئون العامة فى كل ما دق وجل، فبينما تراه يعلق على حديث نبوى إذا به يصل هذا التعليق بمسألة عامة أو بحادثة تاريخية أو بأمر مستقبل يريد أن يومئ إليه بهذا الحديث.

ومع أن جلالتــه صــريح فى بيانــه فهو يتجنب بقدر الإمكان المغامز والإيماء وما عساه أن يُؤول تأويلا مسيئًا ولا سيما عند بعض أفراد أسرة آل الرشيد وآل عايد.

ولهذه المناسبة أذكر أن جلالته تفضل بدعوتى إلى هذا المجلس، وفى الأثناء لفت نظرى إلى نبذة فى إحدى الصحف السورية جاء فيها أن السيد عبد الله بن عايد ترك مكة المكرمة وأنه حشد جيشًا على جلالة الملك ابن السعود، فى حين أن السيد المشار إليه كان بين الحاضرين فى المجلس! فلما قرأت هذا ابتسمت وقلت لجلالته: (وما آفة الأخبار إلا رواتها) فلا يصح يا صاحب الجلالة أن تكون مثل هذه الرواية المكذوبة دليلا قائمًا على أن الصحف سواسية فى هذا الباب، يدلك على ذلك أن الصحافة المصرية مثلا شديدة التدقيق فى رواية الأخبار، فهى لا تقنع من صحة رواية بما يصل إليها من مصدر معين إلا إذا تثبتت كل التثبت من صدقه، وكذلك الشأن فى كل صحيفة تحترم نفسها، ولا تبغى سوى تقرير الحقائق وإنارة أذهان الجمهور بها.

وهنا قال جلالته: إنه يُجل الصحف المصرية ويعتبرها فى طليعة صحف العالم الإسلامى، وما كان يقصد من لفت نظرى إلى تلك النبذة إلا ليلفتنى كصحفى إلى أن كل ما يقال غير صحيح، وأن جلالته وجيرانه وكل من يتصل بملكه من كبار رجال العشائر وأقطابها على اتفاق ووئام، فأمّن المجلس على قول جلالته وفى مقدمتهم السيد عبد الله المذكور.

وبعد أن ينفض ذلك المجلس يذهب جلالته إلى القصر الخاص الذى يقيم فيه والده الشيخ، وهو ـ رغماً عن كونه فى العقد التاسع من عمره ـ على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البديهة ورقة الجانب، فضلا عن كونه محبوباً من سائر أهل نجد.

وبعد أن يقضى فى حضرته برهة ينتقل إلى زيارة كبرى شقيقاته الأميرة «نوره» التى يجلها جلالته ويضعها فى مكان خاص من نفسه، فقد جرت عادة أهل نجد أنهم يخصون كبرى شقيقاتهم بأجلى مظاهر التوفير والإجلال.

ومما أذكره أيضاً بالشكر والثناء لهذه الأميرة الجليلة ذلك الكرم العربى ومكارم الخلال، فقد كانت تبعث إلىّ يومياً بمختلف ألوان الطعام، ولا تنفك تستفسر عن حالى وتبالغ فى إكرام جانبى.

ومن عادة جلالته بعد أداء فريضة العشاء أن يطوف بموظفى ديوانه ويستطلع ما لديهم من الأعمال ويزودهم بما يعن له من الآراء، وفى بعض الأحيان عندما يرى الظروف مناسبة يستقل سيارته ومعه بعض أفراد حاشيته ويذهب للصيد والقنص فى البادية، وقد رأيت بين سيارات جلالته سيارة يهتم بها جد الاهتمام، ولا يركبها إلا فى الحفلات الهامة، تلك هى السيارة الفخمة التى أهداها اليه حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول، صاحب النيل.

بين زعماء قبائل نجد

وعلى ذكر ما روته بعض الصحف أثناء وجود سعادة الطيب بك الهزازى رئيس ديوان جلالة الملك ابن السعود فى مصر أخيراً عن وجود خلاف بين بعض زعماء قبائل نجد أمثال فيصل الدويش، زعيم قبيلة الارطاوية، وسلطان بن مجاد، زعيم قبيلة الغطغط، من جهة، وبين جلالة ابن السعود، من جهة أخرى، أقول:

إنى سمعت شيئًا فى هذا الموضوع أثناء وجودى فى «الرياض» ذلك أنهم يعزون وقوع ذلك الخلاف إلى حادث الاعتداء على المحمل فى مِنًى، فقد قيل: إن القتلى من النجديين كانوا من قبيلة فيصل الدويش، وقد اعتبر بعض غلاة هذه القبيلة أن تصرف جلالة الملك عبد العزيز كان مهيناً لهم، وكان من واجبه أن يثأر لهم، ولكن ما كان أخيب رجاء الغلاة عندما علموا أن فيصلا هذا ذهب إلى «الرياض» عقب وصول جلالة الملك بعد أن تعرف على الحقيقة من جلالته وأمّن عليها وانقضى بذلك كل قيل وقال.

أما سلطان بن مجاد فقد قيل: إن نزاعاً قام بينه وبين جلالة الملك على تطبيق بعض الأمور الشرعية، ولكنه بعد أن تبين الحقيقة قصد إلى «الرياض» وقابل جلالة الملك وخرج من لدنه شاكراً.

ولكن يظهر أن بعض دعاة السوء أرادوا بث دعايتهم فى قلب نجد بعد أن فشلوا فى الحجاز فلم يفلحوا، وهكذا عادت المياه إلى مجاريها وانقضى الأمر.

عقائد النجديين فى الحياة والخلود

ومما يستحق الذكر عن عادات أهل نجد أنهم يعتقدون أن النجدى ـ سواء أكان حضريا أم بدويا ـ إنما خُلق لعبادة الله وطاعة شريعته، وأنه كُتب له فى لوح القضاء أجلا محدوداً، فعليه أن يعمل فى حياته ما يرضى الله إلى يوم مماته، وفى يقينه أنه منتقل إلى جوار ربه فيجازى على ما كسبته يداه، إن خيراً فخير أو شراً فشر، ومن هنا يجىء علة انعدام الجرائم على اختلاف ضروبها حتى فى الحرب، فهم يعتقدون أن من قتل عدوا لدين الله وشرعة نبيه الكريم دخل الجنة، ومن قُتل منهم فى سبيل الله فقد أُجزل له ثواب عمله، فترى البدوى منهم وهو فى سبيل الجهاد يحمل أكفانه وهو ممتلئ يقيناً وإيمانًا بصحة عقيدته، ولعل ذلك كان سببًا فى بذل مُهجهم فى الحروب واندفاعهم إليها بغير تردد، حتى إذا سقط أحدهم فى حومة الوغى قتيلا كان آخر ما يصل إلى سمعه ممن بقى حيًا «واحليلاه، لقد سبقتنى إلى الجنة» .

أما فى حالة هزيمة عدوهم وإطباقهم عليه فتراهم يقولون متهللين: «يا أهل التوحيد، يا أهل التوحيد، إياك نعبد وإياك نستعين» .

ويطلقون على دوى الرصاص: ريح الجنة، حتى إذا أصيب أحدهم أثناء القتال فى ظهره عَدّوهُ جبانًا يحاول الفرار لا يستحق عندهم تكريماً حتى ولا الدفن.

أما عقائدهم الدينية فهى كما أسلفنا: اتباعهم تعاليم السنة النبوية، فلا يقيمون المآتم لموتاهم، ولا يشيدون القباب على الأضرحة، لا ولا على المساجد، فهم يعتقدون أن الموتى فى هذه الدنيا لا يستحقون تكبيراً ولا تعظيماً من جانبهم ما داموا سيُبعثون بعثاً جديداً وينعمون بنعيم الجنة.

ولعل فى هذا بعض الشبه من عقيدة البعث بما كان يعتقده قدماء المصريين بما هو مسطور على توابيت موميائهم وماكانوا يعدونه من الملابس والأطعمة ونحوها استعداداً ليوم النشور.

على أن هناك بطبيعة الحال فارقًا كبيراً بين العقيدتين لا يخفى، فإن قدماء المصريين بتحنيطهم جثث موتاهم وإعدادهم الطعام ونحوه إنما كانوا يعتقدون أن موتاهم سيبعثون بأجسامهم وهياكلهم البشرية بعينها فى هذه الدنيا، ولكن أهل نجد يعتقدون كما يعتقد أهل السنة والجماعة من أهل المذاهب الأربعة بالبعث المعروف فى حياة غير هذه الحياة.

حياة النجديين الاجتماعية

إن أهل نجد ـ ولا سيما سكان باديتها ـ يعدون الأرز طعامًا أساسيًا لهم، بمثابة الخبز عند سائر الشعوب الأخرى، ولما كان هذا النوع من الطعام يستلزم تناوله بالملاعق فإن النجديين لا يستعملون سوى قبضة أيديهم، أما سائر ألوان الطعام الناضجة الأخرى فلا يمكن أن تخلو من إضافة مسحوق «الكركم» عليها ـ ويسمونه البزار ـ ومع كثرة الألبان هناك فإنهم لا يعرفون الجبن، ولكنهم يصنعون شيئًا كثير الشبه به يسمونه «البقل» وطريقة صنعه أنهم يغلون اللبن حتى يجف، ومِن ثَمّ يضعونه فى الهواء فيزداد جفافًا ويقطعونه قطعًا صغيرة بعد أن يضيفوا عليه قليلا من الملح.

ومن عوائدهم أن لا يتناولوا البصل نيئًا، وحجتهم فى ذلك عدم مضايقة المصلين برائحته.

وهم لا يهتمون بتصنيف الطعام ألوانًا، ولا يهتمون بطهى الحلوى، تمشيًا على ما كان عليه السلف الصالح.

ولا يوجد فى نجد كلها سوى طبيب واحد، هو طبيب الملك الخاص، ومع أنه وحيد زمانه هناك فإن عمله قليل، والعلة فى ذلك أن أسقام الناس تكاد تكون معدومة بسبب تقشفهم فى المعيشة وفى تناول الأطعمة، ولأن يد الطبيعة هى التى تقوم مقام الطبيب هناك، يدلك على ذلك أن الوفيات هناك قليلة جداً ويندر أن يموت شخص فى سن الأربعين أو الخمسين.

ولهذه المناسبة أذكر مرة أن جاء بدوى إلى طبيب الملك أثناء وجوده وطلب

إليه أن يصف دواء لامرأته التى كانت تقيم فى قلب البادية وعلى مسير ثلاثة أيام، فاعتذر الطبيب عن وصف الدواء إلا إذا عاين المريضة وشخّص داءها، فما كان من الأعرابى إلا أن هزأ بالطبيب والدواء وقال: لعلها تكون قد شُفيت فلا حاجة بنا إليك، وانصرف لسبيله.

وجاء بدوى آخر كان قد أُصيب برصاصة فى جانب من كتفه شلت ساعده الأيمن، فلما أفهمه الطبيب أن إخراج الرصاصة يستدعى التخدير وإجراء عملية جراحية ضحك وقال: «لا والله، لن أموت إلا بريح الجنة ـ ويقصد بذلك برصاصة أخرى ـ لا أن يموت على مشرحة الطبيب».

ومن أعجب العجب أن أهل البادية الذين يقطعون القفار الشاسعة بلا دليل صناعى أو نحوه، بل بمراصد الشمس والقمر والنجوم وألوان رمال الأرض يستطيعون أن ينبئوك بأن أشخاصًا يتحدثون وهم على بعد نصف يوم على ظهور الإبل فى الصحراء، ولعل ذلك يرجع إلى شدة حاسة السمع والبصر عندهم وصفاء أذهانهم وإلى قوة اتجاه الريح الذى ينقل نبرات الأصوات مع الأثير.

والمواقيت هناك بالحساب الهجرى، وقد يريد بعضهم أن يذكر لك مثلا العام الذى انقضى منذ عشر سنوات، فبدلا من أن يقول لك بالرقم يذكر لك أهم وقائع ذلك العهد كأن يقول ـ سنة الاحساء أو سنة الحجاز ـ وهلمّ جرّا، ولا يمكن أن يخطئ أحدهم فى فهم عدد السنوات التى مضت على ذلك الحادث، أو أن يكون جاهلا لأهم ما جرى من وقائع تلك السنة.

أما نطقهم العربى فلهجتهم تختلف عن لهجة عرب مصر، بل وعرب الحجاز أيضًا، فهم يبدلون الكاف تاء مشددة.

ومن عاداتهم أنهم قبلما يبدأ أحدهم بمحادثة آخر يدعو له بطول العمر، وهناك

اختصار لجملة أو لعدة جمل تقع فى حرفى «س م» بفتح السين وسكون الميم، فعندما يقدم الساقى القهوة بدل أن يقول: «باسم الله» يختصرها بقوله «سم» وإذا أراد أحدهم أن يصدع بأمر فبدل أن يقول سمعًا وطاعة أجاب بكلمة «سم» وإذا ناديت عليًا وأراد أن يقول لك: إنى سامع، هتف قائلا «سم» وهلم جرا.

وللقراءة عند أكثر قرائهم نغمة مخصوصة يخيل إلى سامعها من غير النجديين أنه يستمع لـ «أخنف» ولكنهم يفعلون ذلك مبالغة فى الخشوع والتصوف ولا سيما عند قراءة كتاب الله العزيز.

ولإسدال اللحى عندهم شأن كبير، فهم يعدون من يحلق لحيته مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ، وقد قص علىّ أحدهم وهو يعبث بلحيته اعتزازا بها ـ بعد استئذان الدكتور محجوب ـ أن اثنين اختلفا فى أمر إطالة اللحية من عدمها، وكان أحدهما أجردها، فذهبا إلى بيت رسول الله ﷺ يحتكمان، فلما طرقا باب الدار أجابتهما السيدة عائشة ؓ بأن الرسول ﷺ غائب فذهبا، ثم عادا وطرقاه ثانيًا وكان ﷺ لم يعد فأرادت السيدة عائشة أن تقسم بأنه لم يعد فقالت: (والذى فضّل الرجال باللحى، إن الرسول ليس موجودًا) وهكذا اكتفى ذو اللحية بهذا الحكم وانتصر على زميله وانتهى الأمر.

قبائل بنى صخر

أما قبائـل بنى صخر النازلة فى حدود مملكة نجد من ناحية شرق الأردن فهى لا تزال على فطرتها لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، وقلما تجد من يعرف أداء الصلاة بفروضها، ومع أنهم خاضعون لحكم جلالة الملك ابن السعود الآن إلا أنهم لا يزالون فى عزلتهم التى كانوا عليها قبل دخولهم فى حكم جلالته، فلهم عوائدهم وتقاليدهم، ولهم أزياؤهم، وأهم ما فى أمرهم أنهم لا يأكلون القمح طحينا بل يسلقونه على مثال (البليلة) المعروفة فى مصر، ويعتقد بنو صخر أنهم مصريون أصلا وبنو عمومة للمصريين، وقد كان جدهم الأول مصريا وقد كان لهذا الاعتقاد أثره معى، فقد استقبلنى بعض مشايخ تلك القبيلة بأجلى مراسم التأهيل والترحيب وشرعوا يقيمون الحفلات كأنما جاءهم قريب جليل القدر من ضفاف النيل.

وقد شهدت حفلة عرس، وقد جىء بقطعة من خشب العود وأمسك بإحدى طرفيه كلٌّ من الزوج ووالد الزوجة، ومِن ثَمّ حاط بهما الحاضرون، وهنا قال والد الزوجة (وحياة العود والرب المعبود جوزت ابنتى) فيرد عليه الزوج قائلا (تجوزت ابنتك) وعلى أثر ذلك تُنحر الذبائح وتقام المآدب وينتهى الأمر.

وإلى هنا نكون قد انتهينا من وصف بلاد نجد، طرقها ومسالكها، عوائدها وتقاليدها، ودينها وطبائع أهلها من حضر وبدو.

وقد رأينا قبل مبارحتنا الرياض ـ عاصمة نجد ـ أن نحظى بمقابلة جلالة الملك ابن السعود، كى نحصل منه على حديث مستفيض فى شئون بلاده العامة من سياسية واجتماعية، ونستطلع رأيه فى شأن الخلافة الإسلامية، وما جرى فى حادث الاعتداء على المحمل المصرى، والنظام الجديد الذى وضعته حكومته لحكم الحجاز بعد فتحه، ورأيه فى توظيف المصريين فى مناصب دولته، وقد أبدى جلالته عظيم ارتياحه إلى محادثتنا فيما تقدم.

وإلى القراء هذا الحديث:

حديث ملكي هام

بدأ جلالته حديثه معنا قائلا:

أرجو أن لا تكونوا قد تأثرتم بشيء مما بدا لكم من خشونة بعض سكان البادية وجفاء طباعها أو شدة تعصبهم للدين، فذلك أمر يرجع إلى الفطرة التي نشأوا عليها، على أني شخصيا وكبار أقطاب دولتي لسنا على شيء من هذا، يدلك على هذا أن مندوبي الدول ذات الشأن بنا يدخلون معنا في مفاوضات طويلة فلا نشتد وإياهم، أو نسلك معهم مسلكا ينأى بهم عنا، بخلاف ما شاهدتموه أنتم شخصيا إذا طوحت بكم أحاديث كهذه مع قبائل البدو الذين هم على الفطرة، وإني أحمد الله أن شعباً كهذا يدين بالولاء لمليكه، ويرفع كلمته عند الشدة، ويبذل مهجه عند الضرورة، ويقنع بالقليل من أود الحياة، ولعل أخبار حربنا مع الشريفين وما أبداه شعبنا من بسالة وإقدام وتفانٍ في رفع راية مليكه أكبر شاهد على ما أقول.

سألنا جلالته: وهل تتنازلون جلالتكم ببيان الأسباب المباشرة لقيام الحرب الحجازية الأخيرة؟

فأجاب: نعم، وإني أقسم لك بأني ما كنت أبغي الحرب معهم، لولا أن الشريف حسيناً هو الذي ألجأنا إلى قتاله بما ارتكبته عصابته في السنوات الأخيرة من سوء معاملة حجاج بيت الله الحرام، ليس بالنسبة للنجديين وحدهم، بل وسواهم من أمم الإسلام الأخرى، ولقد صبرنا عليهم صبراً جميلا وفوضنا الأمر فيهم لله تعالى، فما ازدادوا إلا بغيًا وعدوانًا وأنذرناهم بداءة بدء بسوء المصير ولكنهم تمادوا عتواً، وأعمل رجالهم صلفًا وإرهاقًا مما لا قِبَل لنا على المزيد من الصبر عليه، فاضطررنا

فى نهاية الأمر إلى تسيير جيشنا إلى الحجاز، وإذا سمعت منى كلمة: جيش، فليس ذلك الجيش إلا أولئك البدو البواسل الذين تشاهدهم حولك هنا وهناك، فعلنا ذلك وكان يقيننا أننا نطهر أرض الحجاز من أهل البغى ونؤمن طريق الحجاج ونحمى أرواح المسلمين، ليس فى نيتنا أن نتملك الحجاز لذاته أو نزيد ملكنا بسطة وسلطاناً، فقد كنا نعلم أن لأهل الحجاز عقائد وتقاليد تخالف عقائدنا، وهناك عصابات القتل والنهب والإخلال بالأمن من الصعب قطع دابرها أو تحويل عقائدهم وأحكامهم إلى مثل الحال فى بلادنا، نجد، وكنا نعلم أكثر من ذلك أن امتلاك الحجاز ربما يسبب لنا متاعب ويفتح الباب لتدخل بعض الدول الأوربية معنا، ولكنا خضنا الحرب مع ذلك تحت تأثير غرضنا الأسمى، الذى أسلفت لك بيانه، وهكذا كُتب لنا النصر بعد حرب لم تدم طويلا بسبب تذمر الحجازيين من سوء حكم الشريف، حتى لقد كان رجالنا لا يلقون فى أكثر المواقع الحربية مقاومة تذكر، وكنا كلما دخلنا مكانًا أهلّ بنا أهله كافة، بل ما كدنا نطرد الشريف وعصبته ونقبض على ناصية الأمور فى الحجاز ونعلن لأهلها عدم رغبتنا فى حكم الحجاز حتى اجتمع زعماؤه وأصحاب الكلمة فيه وأجمعوا رأيهم على مبايعتنا المُلْك فيه، وهكذا لم نر بدًا من أن نقبل هذه البيعة، وأن نقبل حكم الحجاز بدين الله وسنة نبيه الكريم.

وسألنا جلالته ـ وماذا أبدلتم من نظام الحكم فى الحجاز؟

فأجاب جلالته: إن النظام الأساسى لحكومته لم يتغير، فأبقينا كبار الموظفين الذين عهدنا فيهم الصدق والإخلاص لنا، بل الذين كانوا فى مقدمة الذين بايعونا المُلْكَ وكل ما أحدثناه هو إبدال القوانين التى شرعها لهم الشريف باتباع حكم الشرع، كما هو الحال فى نجد، وقد استقبل الناس ما شرعناه لهم بمزيد الابتهاج

والرضى، وقد كان لذلك أثره الفعال فى سرعة تبدل الحال واستتباب الأمن وقطع دابر الفوضى من أرض الحجاز، كما سوف ترى عندما تزورها.

وسألنا جلالته: قلتم لنا: إنه لم يكن بد من تدخل بعض الدول فى شأن من يحكم الحجاز، فماذا تقصدون جلالتكم بتلك الدول؟

فأجابنا: تعلمون أن أكثر دول أوربا وفى مقدمتهم إنجلترا تحكم أمماً إسلامية، فكان من البديهى أنها تهتم بشئون حجاجها.

مثل ذلك أن الأزهر الشريف فيه رواق لكل دولة ومن حقها أن تتدخل مع الحكومة المصرية فى كل ما يمس شئون شيوخه وطلابه، فالمسألة فى حكم الحجاز من حيث تدخل الدول لا تتعدى هذا الشأن فقط، وإذا جاز لى أن أخص بعض الدول بالثناء فإنما هى إنجلترا التى برهنت فى أكثر من موقف على أنها لا تبغى بنا تحكماً فيما هو خارج عن حدودها، فما دام رعاياها من الحجاج فى أمن واطمئنان وأسباب رعاية صحتهم متوفرة بينهم فهى لا تحرك شأناً، قلّ أو عَظُمَ.

سألنا جلالته: وما رأيكم فى الخلافة الإسلامية ولماذا لا ترغبون فيها؟

فأجابنى مبتسماً: إنى أعتذر لك عن الخوض فى هذا الشأن الخطير لأسباب أراها لا تتفق مع تمسك أهل بلادنا بنصوص حكم الشرع، ولا أرى من اللياقة وحسن المجاملة أن أنبسط معك فى هذا الموضوع.

قلنا لجلالته: وما رأيكم فى توظيف أذكياء المصريين فى وظائف دولتكم؟

فأجابنا جلالته قائلاً: إن حبى وتقديرى لأبناء مصر فوق ما تتصور أنت، فهذا مستشارى الأمين وساعدى الأيمن فضيلة الشيخ حافظ وهبه، له عندى المقام الأسمى وعظيم التقدير، وإنى أرحب بمن يرغب فى تولى مناصب البلاد من أبناء هذا البلد الغنى الوفير الخيرات، وإنى أرجو الله أن يتسع نطاق العمران فى بلادى

على مدى الأيام وتزيد موارد دولتى فيكون المجال فسيحا أمام هؤلاء الإخوان الذين أتمنى وجود أكثر عدد منهم بين موظفى حكومتى.

قلنا لجلالته: وما رأيكم فى حادث المحمل المصرى؟

فأطرق جلالته قليلاً ثم قال:

ليت تلك الساعة العصيبة التى وقع فيها هذا الحادث المنكود لم تكن مسطورة فى حساب الدهر، فقد جرها أناس لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، وهم فى ساعة غليان، أحمد الله الذى كتب لحامية المحمل المصرى السلامة ولم يحملنا وزر ما جرى أو ما كان أن يكون، فمصر هى أقرب دول الإسلام جواراً لنا، وجلالة مليكها فؤاد الأول له فى فؤادنا أجل مكان، وإنى أؤكد لك بأنه على توالى الأيام سيدرك أمثال الذين أثاروا هذه الحادث برعونتهم أن لا شيء أحب إليهم من تمتع الأراضى المقدسة بأعظم أنواع السلام والطمأنينة.

وكان هذا خاتمة حديثنا مع جلالته وبعد أن شكرنا ما لقينا فى بلاده من ضروب الحفاوة والإكرام وما خصنا به جلالته وسائر أفراد أسرته الكريمة من الرعاية والعطف استأذناه فى السفر إلى مكة المكرمة.

إلـــى ام القــرى

لا نأتي على نهاية هذا المقال حتى نكون قد انتهينا بالقراء من وصف تلك الرحلة، فيكون مسك الختام، ولقد أسلفنا القول في مقالنا السالف بأننا سنقتصر هذا المقال على وصف رحلتنا في أرض الحجاز بعد أن قضينا نيفًا وشهراً في عاصمة نجد، وأكثر من شهرين في التنقل بين بلاد نجد، وكان في نيتنا أن نقوم برحلة طويلة نستعرض فيها سائر مدن الحجاز، لولا أن داهمنا القيظ بخيله ورَجْلِه، فقد كانت درجة الحرارة في شهر مارس أشد منها في شهر يوليو بالقاهرة، حيث نصطليها الآن، وعلى ذلك لم نر بُداً من الاقتصار على زيارة مكة المكرمة، وفي الواقع فإنها كل شيء في الحجاز، بل هي الحجاز كله، فأم القرى هي مظهر حياة الحجاز والحجازيين، على أنها في الأثناء الأخيرة وبعد أن حكمها الوهابيون قد تطورت تطوراً يدفع بالباحث الرحّالة إلى استطلاع قديمها وجديدها.

تركنا «الرياض» وكان من حسن الحظ أن رافقنا في رحلتنا منها إلى أم القرى سعادة الطيب بك الهزازي، رئيس ديوان جلالة الملك ابن السعود، يحمل الهدية السعودية إلى صاحب السمو الأمير فاروق ولي عهد الدولة المصرية، وهي الجياد الأربعة التي وصلت إلى مصر منذ شهرين، فقطعنا ستة أيام على ظهور الإبل لم نشهد في طريقنا أثراً لبلد إلى أن صادفنا قرية تدعى «الشعرا» هي بمثابة محط لرحال القوافل وتزويد رجالها بما يحتاجون إليه من مؤونة وماء، لهذا السبب ترى أسعار الحاجيات فيها مرتفعة جداً، وتركنا هذه القرية وواصلنا السير بين وديان وحزون، فتارة نصعد إلى هضاب عالية وقمم جبال شامخة، ثم ننخفض إلى سفوح بعيدة الغور

وعرة المسالك، حتى إذا احتجنا إلى الماء لم نجد حاجتنا منه إلا من آبار بعضها ذات ماء آسن أو ملح.

وهكذا قطعنا عشرة أيام على هذه الحال إلى أن بلغنا بقعة يسمونها «السيل» وقد سميت كذلك لوقوفها فى سفح سلسلة جبال تنحدر من قممها مياه الأمطار فتكوّن شبه بحيرات صغيرة.

وفى هذه البقعة يتحتم على قاصدى أم القرى أن يُحرِموا استعداداً لدخول المدينة المقدسة، فخلعنا ملابسنا العادية وأحرمنا وواصلنا السير، حتى إذا بانت أمام أنظارنا قباب مكة ومبانيها الشاهقة هتفنا مع رجال القافلة قائلين: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، السعد والخير بين يديك».

وفى مساء ذلك اليوم بلغنا أبواب مكة، فكان أول ما قمنا به أن طفنا حول البيت الكريم وسعينا بين الصفا والمروة سبع مرات، وهذا فرض واجب على كل داخل مكة.

وكان رجال الحكومة قد أعدوا لنا منزلاً خاصاً قضينا فيه ليلتنا، وفى اليوم التالى قابلنا سمو الأمير فيصل نائب جلالة والده فى حكم الحجاز فشاهدنا فيه أميراً عربياً حلو الشمائل عذب الحديث ذكى الفؤاد، وكان ارتياحه إلى رحلتى عظيماً، ولم ينس أثناء الحديث أن يذكر مصر وجلالة مليكها ورجال الأقلام فى مصر بنوع خاص بأحسن ما يذكر من طيب الحديث.

فــى مكــة المكــرمــة

ومما لاحظناه ـ وكان آنئذ شهر رمضان ـ أن أكثر المتاجر والحوانيت مغلقة، وحركة المارة فى الشوارع خفيفة، وهى حالة تختلف اختلافًا كليًا عن مثلها فى سائر المدن الإسلامية الأخرى، وقد بحثنا عن السر فى ذلك فعرفنا أن سكان مكة ينقطعون بكلياتهم وجزئياتهم خلال شهر الصوم للعبادة والتقديس ونسيان متاع الدنيا ومشاغلها.

ومكة مدينة كبرى بحق، أكثر مبانيها مشيدة بالأحجار، ذات وجهات بارزة بشكل «مشربيات» بعضها على نمط عربى بحت، والبعض الآخر يشبه المبانى المصرية التى شيدت خلال نصف القرن الماضى، وهى كثيرة الأسواق، يجد فيها المسافر كل ما تشتهيه نفسه من الحاجيات من ملبس ومأكل وكماليات، ولا سيما بعض الزخارف التى يجيدها صناع أصلهم من الهند والعراق والشام وبعض أهل مكة أنفسهم، فأسواق الحرير مثلا ـ مع أن دودة القز لا تعيش فى الحجاز وقزها يجلب من دمشق الشام وبيروت ـ يشتغلون بصنعها، حتى إذا عرضت مصنوعات مكة الحريرية على طلابها ميزوها وأيقنوا أنها من صنع مكة.

على أن سائر السلع والبضائع مرتفعة الأسعار حتى الفاكهة وبعض الخضروات بسبب استجلابها من الخارج وضرب الرسوم الجمركية فادحة عليها.

أما اللحم والسمن فكثير جداً وأثمانه رخيصة عنها فى مصر.

أما الحالة الصحية بسبب قدم المدينة وضيق شوارعها وعدم تنسيقها وشدة حرها، وعدم اعتناء الحكومات البائدة بتوفير أسباب الصحة العامة فليست حسنة،

ولكن الحكومة الحاضرة شرعت فى استجلاب المرشحات للمياه وتوسيع بعض الشوارع وإضاءتها، كل ذلك يحمل على الاعتقاد بحسن الحال فى مستقبل الأيام.

ويبلغ تعداد سكان مكة والقرى المجاورة لها زهاء مائة ألف نسمة، وأكثرهم طوال القامة يضرب لونهم للسمرة مع نحافة غالبة فى الأجسام على أنهم يتمتعون بصحة جيدة.

وظاهر أن اختلاط العنصرين التركى والمصرى بهؤلاء السكان أحدث تغييراً فى لهجة حديثهم ودرجة تفكيرهم وذهنياتهم، وهناك عدد غير قليل من الأغنياء الموسرين الذين أثروا من تبادل المتاجر والأرباح الطائلة التى دخلت عليهم فى أوقات الحج، يجد الزائر المصرى فى منازلهم من أدوات الترف وجمال التنسيق ما يجده فى بيوت بعض كبراء مصر، وتناول القهوة هناك شائع على الطريقتين المصرية والتركية، إلا أن شرب الشاى هو الأكثر شيوعاً.

أما عقائدهم الدينية فهم أقل تعصبًا للدين من أهل نجد، وقد لاحظت أن بعضهم مع إحلال الحكم الوهابى وتطبيقه فى الحجاز لا يزال يستبيح لنفسه بعض المحرمات الوهابية، مثال ذلك أن بعضهم لا يزال على عادته فى تدخين الدخان والتمباك إلا أنه لا يجسر على تدخينه جهاراً، وهناك بعض أصحاب القهوات ينصبون أستاراً داخل محلاتهم يستتر وراءها مدخنو النارجيلة والسجائر.

وللماء هناك شأن يذكر ولا سيما فى موسم الحج، فيكثر استهلاك الماء من الآبار، فتقل مياهها بطبيعة الحال، ولاسيما فى الطريق ما بين مكة وجبل عرفات، وكان من أهم ما اتجهت إليه أنظار جلالة الملك ابن السعود بعد فتحه الحجاز هو العمل على حل هذه المشكلة الهامة فأمر ببناء أحواض تخزن فيها المياه بكثرة قبل تدفق سيول الحجاج وبذلك يجدون حاجتهم منها بسهولة وبثمن مقبول.

والماء هناك نوعان: عذب وملح، فالعذب يستخرج من عين تسير فى قناة من الحجر تحت الأرض وهى المعروفة بـ «عين زبيدة» ويبتدئ أولها قبل منطقة السيل، التى أسلفنا ذكرها.

ويروى أن الملكة زبيدة ـ زوجة هارون الرشيد ـ هى التى أنشأت هذه القناة فسهّلت على أهل مكة سبيل الحصول على المياه العذبة.

ولهذه العين عدة فتحات يزدحم عندها السقاة لأخذ حاجتهم منها ويحدثون ضجيجاً يصم الآذان.

أما المياه الملحة فتستخرج من آبار ارتوازية، وهى ليست ملحة جداً، ولكن الحاجة تدفع بعض الناس إلى استعمالها، ومياه «بئر زمزم» الكائنة وسط الحرم الشريف من هذا النوع ولا يتناولها الناس إلا على سبيل البركة.

ويعتمد أهل الحجاز فى معيشتهم على موسم الحج الذى يدوم حوالى ثلاثة شهور، فالمبانى تُؤجر لسكنى الحجاج بأجور مرتفعة، والتجار والصناع يعرضون ما يدخرونه من البضائع والمصنوعات على الحجاج.

وهناك طائفة الصيارف ينتشرون فى زمن الحج ويربحون أرباحًا طائلة من تبادل أنواع العملة المختلفة التى تحملها الحجاج.

وعلى وجه العموم فإن أهل مكة يعتمدون على قوام معيشتهم خلال بقية أيام العام على ما يجنونه من أرباح مواسم الحج.

ومما يلاحظه زوار مكة كثرة المستجدين من السودانيين الذين يسمونهم «التكارنة» وهؤلاء ممن تضيق بهم سبل العيش فينزحون إلى جوار الحرم الشريف رجاء العيش مما يجود به أهل الخير، وقد شهدت نفراً من أولئك السودانيين بحالة تفتت الأكباد، ولست أدرى ما هو نصيبهم من حسنات حكومتهم الغنية فى ديارهم.

مجلس الشورى

أما نظام وضع الحكومة الحجازية فباقٍ كما كان عليه في الزمن السابق، من حيث تنظيم الإدارات والاختصاصات وكل ما استجد هو استبدال القانونين المدنى والجنائى بإنفاذ أحكام الشريعة السمحة وفاقًا لما أفضى به إلىّ جلالة الملك عبد العزيز فى حديثه، وقد زاد جلالته بأن أنشأ مجلسًا للشورى على نحو ما وافتنا به الأنباء الأخيرة.

ولعل هذا أجلّ ما استبشر به الحجازيون وارتاحت له سائر الأمم والشعوب ذات الاتصال بالأراضى المقدسة، فلسوف يكون من شأن هذا المجلس العمل على نشر العلم ومحاربة الأمية وتقوية أسس المعاهد وأهمها «المعهد السعودى» الذى تُلقن فيه العلوم الدينية والعمرانية الراقية التى يقوم بتدريسها جماعة من أفاضل الأساتذة المصريين والسوريين.

وكذلك فإنه على الرغم من المنشئات الصحية التى أقامها أخيرًا الملك عبد العزيز وأنفق فى سبيلها الأموال الطائلة فإن المأمول على يد مجلس الشورى الجديد أن تزداد العناية فى هذه الناحية والإكثار من المستوصفات ومخازن الأدوية وإعداد الأطباء الأخصائيين فى مختلف الأمراض، كذلك قل بتسهيل سبل المواصلات وتعميم المحافظة على الأمن العام.

الأمير فيصل

ولما كان جلالة الملك عبد العزيز بحكم اضطراره لمباشرة شئون نجد على الأخص، ولأنه فى الواقع لا يريد أن يحصر همه فى إدارة شئون الحجاز فقد اقتضت حكمته أن يولى سمو الأمير فيصل، ثانى أنجاله، بمثابة قائمقام له فى إدارة حكم الحجاز، بعد ما آنس من تعلق الحجازيين بذاته وميل الشعب الحجازى إلى تسيير شئون الحكم على مقتضى نظام الشورى.

وقد أصاب فى ذلك كل الإصابة، فقد أظهر هذا الأمير الصغير السن حكمة الشيوخ ولباقة الحكماء، فجمع القلوب حوله، حتى إن ممثلى الدول الأجنبية الذين خالطوه بحكم مهامهم الرسمية شهدوا له بحدة الذكاء وبعد النظر ورقة الجانب، وكانت رحلته فى عواصم أوربا فى خلال الصيف الفائت مما أيد حسن ظن هؤلاء وأولئك فيه فنشر دعاية العرب بين أمم الغرب من طريق غير مباشر، وعاد يحمل إلى قومه وبلاده ثقة الأمم المتمدينة بعد أن كان الاعتقاد السائد بينهم أن بلاد العرب يحكمها أناس بعيدون عن المدنية مجردون عن صفات التهذيب الإنسانى.

الحج ومراسيمه

ومما يذكر حيال الحج ومراسيمه أن جماعات المطوفين كانوا إلى ما قبل حكم الملك ابن السعود فى الحجاز أشبه بجماعات التراجمة الذين يصاحبون السياح الأجانب فى مصر، فيمثلون معهم شتى ضروب القبائح ويرسمون أمام أنظارهم أشنع صنوف الموبقات، ويصورون لهم الأمة المصرية تصويراً ذميماً، مما حمل الصحافة المصرية فى الأيام الأخيرة أن تطلب من الحكومة المصرية الوقوف فى وجههم ومصادرتهم وسن اللوائح لإيقافهم عند حدهم محافظة على كرامة مصر وسمعتها.

وقد كان أولئك المطوفون يتلقفون الحجاج، ولا سيما بسطاؤهم، فيبتزون أموالهم ويلقنونهم أقوالا خرافية منافية للشرع والعقل معًا، مثال ذلك أن يمسك أحدهم بحاج ساذج ويلقنه العبارة التالية، بصوت خافت على باب الحرم الشريف، كأنما هو يُنزل عليه آية من السماء، وهذا هو: «اللهم إنى نويت إعطاء مطوفى مبلغ كذا من المال بنية الله ورسوله» فإذا ما نطق الحاج بهذه الكلمات حسب أنها سُجلت عليه فى لوح مسطور لا سبيل إلى نقضه بحال حتى إذا فرغ من طوافه أدى ما تعهد به لذلك المطوف المحتال بغير إمهال، وهكذا دواليك.

وأكثر منه مما كان يجرى فى السر والعلانية، وقد يكون بعضه مما يغضب الله ويندى له وجه الآداب.

أما الآن فقد قضى نظام الحكم الجديد على تلك المظالم والبدع السخيفة، ووُضع أولئك المطوفون تحت مراقبة شديدة، فإن أقل شكاة يرفعها أحد الحجاج ضد أحدهم تكون كافية لإبعاده عن حظيرة المطوفين.

أما مشكلة الأمن العام التى كانت هى فى الواقع أم المشكلات، ورأس كل الخطايا، مما كان يحسب له المسلمون الراغبون فى حج بيت الله الحرام أكبر حساب، فقد كانت فى طليعة المشكلات التى استطاعت الحكومة الجديدة حلها على أهون سبيل، فمنذ حل حكم الشرع محل القانون المدنى والجنائى، وأدرك دعاة الشر والإجرام ما هو حكم الشرع حيالهم نزعوا عنهم ثيابهم وغسلوا أيديهم من أوزار الماضى ووضعوا أنفسهم رهن ما قضى به حكم الشرع، إذا ما حدثتهم نفوسهم بمخالفة ما تقضى به هاتيك الأحكام، فكان أهم ما انقطع دابره تلك الفعلة المشئومة التى كان يلجأ إليها أشرار البدو الحجازيين ولا سيما رجال قبيلة عتيبة وبنى هذيل وحرب، الذين كانوا يستدينون الأموال من بعضهم بعضًا على أن يقوموا بسدادها من أسلاب الحجاج وما يغنمونه من أموالهم، فقد عمد الملك عبد العزيز فوق اعتماده على إنفاذ حكم الشرع إلى بسط يده بالإحسان إلى فقراء هؤلاء البدو، وبذلك أمنت القوافل التجارية على ما تحمله من بضائع وسلع مهما بلغت قيمتها، وأمن الحجاج كذلك على أرواحهم ومتاعهم، يدلك على ذلك أن رجال المحمل المصرى عندما سافروا فى العام الماضى أثبت سعادة أمير الحج فى تقريره لولاة الأمور أن عصابات البدو التى اعتادت غزو المحمل ورجاله لم يبق لها أثر فى الحجاز، وفى هذا العام سافر الحجاج المصريون وعادوا دون أن يصيبهم أقل اعتداء، حتى قال لنا أحد الحجاج: «إن امرأة مصرية تستطيع أن تبرح مصر بمفردها وتقصد إلى قلب الحجاز وتقوم بفريضة الحج ثم تعود دون أن يصيبها أقل مكدر».

والظاهر أن استقرار حالة الأمن حملت أحد أعضاء مجلس الشيوخ المصرى على التصريح رسميًا بأن المحمل وحرسه أصبح بدعة يجب إبطالها، وقد تألفت لجنة خاصة للنظر فى هذه المسألة.

على أن هناك رأياً آخر هو أنه إذا استقر الرأى فى نهاية الأمر على منع سفر المحمل فليس من العدل أن يُحرم فقراء الحجاز من الميرات وخيرات الواقفين التى اعتادت مصر إرسالها إلى الحجاز من قديم الزمان، ولعل ذوى النظر البعيد من ولاة الشأن فى مصر سيراعون هذه النظرية بما تستحقها من العناية والاهتمام.

مصر فى الحجاز

إن مصر لتتيه فخراً بين أمم الإسلام التى تحج الحجاز بوجود التكية المصرية والمستشفى المصرى التى يخفق عليهما العلم المصرى على الدوام بصورة تشعر العالم الإسلامى أن مصر ذات الأثر الخالد والمجد التالد فى المكرمات السباقة إلى رعاية حقوق الإنسان لها ذلك الأثر الناطق على مقربة من أشرف مكان يهتدى إليه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها.

فلقد هزنى الفخر بحق عندما زرت دار التكية المصرية التى يديرها مواطننا الفاضل إبراهيم صبحى نجاتى أفندى، وألفيتها لا تختلف عن إحدى إدارات الحكومة المصرية بالقاهرة نظاماً، ورجالها يقومون بتوزيع الطعام من خبز ولحم وأرز على جيش من البؤساء والمعوزين صباح كل يوم، فتسمع أصوات ذلك الجيش وهم ينصرفون تتصاعد بالدعاء لمصر وجلالة مليكها.

وماذا أقول فى ذلك المستشفى الذى يضم بين جدرانه مئات المرضى بمختلف الأسقام والأدواء، وهم يُعالَجون بمزيد العناية والرفق، وتُصرف لهم الأدوية والعقاقير والأطعمة الصحية بسخاء عظيم، أضف إلى ذلك عناية حضرة الدكتور البارع عبد الهادى بك خليل الذى يواسى المرضى برقته ويحنو عليهم بعلمه ورعايته.

وعندى أن وجود مثل هذين المعهدين الإنسانيين لخير من ألف تمثيل سياسى لا طائل منه.

فـي جـــدة

قد انتهينا من رحلتنا واستوعبنا ما يهم قومنا وبلادنا الاطلاع عليه واعتزمنا مبارحة مكة فودعنا سمو الأمير فيصل الذى كان على الدوام لا يكف عن التلطف بنا والاستفسار عنا ـ ومن ثم استقلينا سيارة سارت بنا نحو ثلاث ساعات حتى بلغنا «جدة» بعد أن مررنا بقرية صغيرة تقع فى متوسط الطريق تدعى «بحرة» وهى نقطة تتمون منها السيارات بحاجتها ومحط لرحال قوافل الحجاج الذين يستريحون فيها.

وثغر «جدة» من أهم موانى الحجاز على ساحل البحر الأحمر وبسبب مركزها الطبيعى يعتبر أهلها أغنى من أهل مكة ومن سائر البلاد العربية فى شبه الجزيرة، وذلك لاتصالها بالأسواق الخارجية، ومرور البواخر القادمة من الهند إلى مصر وغيرها، ويحكم هذا الثغر حاكم يلقب بـ «القائمقام» يعاونه رجال الشرطة.

وتوجد فى جدة دور القنصليات وبعض المصارف المالية، وتقع القنصلية المصرية فى بناء فخم، ولا يمر بجدة مصرى حتى يلقى من عناية صاحب العزة أمين بك توفيق قنصل مصر ما يطلق لسانه بالشكر والثناء، ولا يوجد فى جدة إلا عدد من الأوربيين الذين يعدون بمثابة «قومسيونجية» لاستجلاب البضائع من البلاد الخارجية وتوزيعها على التجار المحليين الذين يوزعون سلعهم فى داخل البلاد.

وجمرك جدة يعتبر ركناً مهما من موارد الثروة للحكومة الحجازية، فإن ما يجبيه من الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات مع فداحتها يكون دخلاً عظيماً لا يستهان به.

وطقس جدة لا يعد ألطف كثيراً منه عن داخلية البلاد مع كونه على ساحل

البحر الأحمر، فالحر هناك شديد، ولعلّ أبخرة البحر هى التى تفسد من
الخالص فليس يغبط أهل جدة وجودهم على الشاطئ اللهم سوى اغـ
يدخل إليهم من الأرباح وتيسير أسباب الرزق لهم.

* * *

وإلى هنا تكون قد انتهت رحلتنا، وحسبنا أننا ـ كما قدمنا للقرا
منها سوى إيراد الحقائق من الوجهتين العمرانية والاجتماعية التى لم
معرفته والبحث فيه حتى الآن.

الخــاتمــة

هكذا تطورت الحال فى مملكتى نجد والحجاز وتم لهما ذلك الاندماج المتين فخرجت «نجد» من عزلتها الطويلة عن بقية الشعوب الإسلامية المتحضرة، وأصبح مليكها هو صاحب الكلمة النافذة والصوت المسموع فى الأراضى المقدسة وشئونها، وبات اسمه علمًا بين ملوك الإسلام يُشار إليه بالبنان، وقد أثبت بالفعل لا بالقول أنه جدير بهذا المُلك المترامى الأطراف، الجليل الشأن فى عيون سائر المؤمنين، وأنه بعد أن طهر الأراضى المقدسة من أدران المفاسد والمظالم التى نشرها رجال الحكم البائد استطاع أن يقطع دابر عصابات النهب والسلب ويضرب بعصا من حديد على أيدى قطاع الطريق، فأمّن سبل الحج لكافة المسلمين ونظم شئون الصحة العامة، وأقام حكم العدل بين سائر رعاياه، لا فرق بين نجدى وحجازى.

ومما لا ريب فيه أن بلاداً كهذه وقد خرجت من عزلتها ووضعت يدها بأيدى جاراتها من البلاد المتحضرة سيكون لها حظها من الحضارة بحكم المجاراة على مر الأيام .

ومن يعلم ما كانت عليه الحجاز قبل أن يحكمها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود كيف كانت الفوضى ضاربة أطنابها وأموال الناس وأرواحهم فى خطر دائم من اعتداءات البدو الحجازيين واستخفافهم بالنظام والحكومة القائمة بالأمر، وهذا ركب المحمل المصرى كان على الدوام هدفًا لاعتداء المعتدين، وفتك الفاتكين، فبات الحجاج يسافرون أفراداً وجماعات حتى دون أن يرافقهم حرس المحمل، ثم يعودون

دون أن يصيبهم أقل أذى، ولم يكن هذا شأن حجاج مصر وحدهم بل هى الحال مع سائر المسلمين الذين يحجون بيت الله الحرام.

وإذا كان كل شيء في أوله صعبًا فلا عبرة ألبتة ببعض ما قام من وجوه الخلاف في الرأى بين الحكومتين المصرية والحجازية بشأن المحمل المصرى، وقد يأتى وقت تضع فيه حكومتا البلدين اتفاقًا متينًا يرتب شئون الحج ومراسمه فى المستقبل وطبقًا للتطورات الحادثة بين الأمم والآراء العامة.

وكذلك فإذا كان بعض الذين لا يحلو لهم الصيد إلا فى الماء العكر قد زين إليهم أن يثيروا العواصف ويشيعوا الأكاذيب عن حكم الحجاز وآراء الوهابيين الدينية قصد تنفير الأمم الإسلامية من حكم جلالة الملك عبد العزيز فحسبنا أن مثل هذا وأكثر منه يقع عادة بين سائر الأمم، ولا سيما عقب الفتوح والانقلابات السياسية، ولسوف يدرك هؤلاء وأولئك من حسن نيات الملك ابن سعود وضروب الإصلاح فى بلاد الحجاز ذاتها ما يسكت ألسنتهم وينطقهم بالحق من حيث لا يشعرون، على أن دعاة هذه الدسائس ـ والحمد لله ـ ليسوا من البراعة والدهاء ما يخشى شرهم ويؤثر سوء فعلهم، فجلُّهم من حثالة الناس، أو أذناب الحسين وأنصاره، ممن لا يعتد بشأنهم ولا يؤبه بحالهم.

وإنا لنسأل الحق جلّت قدرته أن يكتب للإسلام والمسلمين اتحاد الكلمة ورفع راية الإسلام بين الأنام، وأن يوطد دعائم الحب والولاء بين ملوك الناطقين بالضاد وأمرائهم، وأن يوفقهم إلى ما فيه مرضاة الله ورفع شأن المؤمنين بمنه وكرمه.

انتهى

فهــرس موضوعات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

رقم إيداع	٩٢٢٨ / ٩٧
الترقيم التدولي I . S . P N	977 - 5250 - 16 - 1